

قادة الفكر في الشرق والغرب

« ٥ »

الجزء الثاني

أبو حيان التوحيدي

الدكتور
أحمد محمد الجبوري



Bibliotheca Alexandrina



0126195

مكتبة جامعة القاهرة
مكتبة جامعة القاهرة
١٥ شارع كاترين

قادة الفكر في الشرق والغرب

« ٥ »

أبو حيان التوحيدي

الجزء الثاني

تأليف

الدكتور

أحمد محمد إيجوني

أستاذ تاريخ الأدب المساعد

بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

مكتبة البيع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالجيزة

١٨ شارع كامل مدني

مقدمة

أحمدك اللهم ، وبك أستعين .

وبعد

- ١ -

فقد اتصلت بأبي حيان التوحيدي عن بعد ، حينما قرأت على مجل بعض موضوعات من كتابه (المقابسات) ، ثم بضمة موضوعات من كتابه (الهوامل والشوامل) ، ولكن هذا الاتصال العاجل أوحى إلى بكبار علمه والإعجاب بفنه .

ثم اتصلت به عن قرب قريب ، وعشت معه مدة من الزمن ، حينما شرعت بأكتب هذه الدراسة ، فعظم لكبارى لعلمه ، وإعجابى بفنه .

وأيقنت أن الرجل مغبون القدر ، مهضوم المبكاة . وأيقنت أنه أجدر بالدراسة والتقدير من أرباب الصناعة التنظيمية الذين ذاعت شهرتهم في حياتهم ، وبعد مماتهم ، وما زالوا يذرسون إلى اليوم على أنهم زما . مدرسة ، أو أصحاب طريقة في الكتابة ، كابن العميد وابن عباد والقاضي الفاضل ولسان الدين ابن الخطيب .

والحق أن أبا حيان يفضّل هؤلاء جميعا ، ويفضل أضرابهم من كتاب الخزف والزينة ، كبديع الزمان الهمداني والحريري .

نعم ، يفضّلهم بعدة مزايا ، سنمرض لها في الجزء الثاني من الكتاب ، حين نوازن بينه وبين كتاب عصره .

وحسبني أنه كاتب يجيد بالفكرة وبالعبارة معا ، وأنه يستلهم مشاعره

— ٤ —

وعواطفه ، كما يمتد على التائق والافتنان ، وأنه قد جال بقلمه الفنى فى ميدان العلم والمعرفة ، فطوَّع النثر للترجمة عن الثقافة فى تعبير من الأدب الرفيع ، وبهذا كل ما بدأه الجاحظ من قبل .

أما هؤلاء فلم يكونوا كذلك ، لكنهم نالوا من الشهرة والمجد ما حرَّمه أبو حيان ، لأن بعضهم كانوا وزراء ، وكان لهم من نفوذهم السياسى ما أضاف عليهم هالة من المجد ، وأضاف إلى أدبهم تقديرا لا يستحقه ، ولأن الذوق الأدبى قد ضعف وانحرف منذ القرن الرابع ، فصار الأدب الرفيع هو المنقلب بالمسماة والزينة ، وإن كان خلواً من العاطفة ، فقيرا فى الفسكرة ، قافه الموضوع .

وكان هذا من أسباب غيب أبي حيان ، وحرمانه المكانة التى تبوأها أستاذه الجاحظ من قبل .

ولو أن عصره أنصفه ، ولو أن العصور اللاحقة أنصفته ، لكان مكانه الآن فى الصدارة من كتاب العربية الأفاضل ، ولاحتل منزلة عالية فى تاريخنا الأدبى على مر الزمن .

وإنه ليسعدنى أن أساهم اليوم فى إنصاف أبي حيان ، وفى التنويه بعمله وأدبه ، وفى بيان ماله وما عليه .

— ٥ —

ولم يكن بُد فى هذه الدراسة من اللامة بالمؤثرات فى أدبه وفى حياته وفى مكانته ، قبل دراسة أدبه نفسه .

لهذا تحدثت عن عصره السياسى والعلمى والأدبى ، وتحدثت عن معالم حياته ، وأخلاقه ، وثقافته ، وصلاته بوزراء عصره ، وبؤسسه ، وتدينه ، وتصوفه ، وأمانته فى النقل والرواية ، وانتهامه بالزندقة وبالوضوح ، وإحراقه كتبهم .

— ٥ —

ثم عرضت مؤلفاته كلها ، وحللت منها ما تسلّم من عوادي الدهر ، وذكرت
من كل كتاب نماذج .

ثم درست في تفصيل خصائصه الفكرية والفنية ، ورأيت أن هذه الخصائص
لا تتكشف على حقيقتها إلا بالموازنة النصفة بينه وبين كتاب عصره .

وإذ كان أبو حيان كلياً بالجاحظ ، وتكرّد في القديم وفي الحديث أنه خليفة
الجاحظ ، كان لابد من الموازنة بينهما .

وفي نهاية الدراسة خاتمة سجلت فيها ما هدتني إليه الدراسة من جديد .

— ٣ —

وقد استقيت الحقائق من ثلاثة منابع :

الينبوع الأول: مؤلفات أبي حيان نفسها ، لأنها ناطقة صادقة في تصوير كثير
من أحواله وأحوال عصره .

والينبوع الثاني : دراسة القرن الرابع ، والإلمام بأحواله السياسية والاجتماعية
والعلمية والأدبية .

والينبوع الثالث : ما كتبه القدماء عن أبي حيان — على قلته وتحامله ،
خيما عدا ما كتبه ياقوت الحموي — وما كتبه المعاصرون .

ووجدت أننا قد اختلفنا في المنهج والنتائج والأحكام ، وقد اتفقنا .

واست أزعّم أنني — فيما خالفت فيه — صاحب الرأي الصائب ، لأن من
المجازفة أن يدعى باحث لنفسه كل الصواب ، فإن الدراسات تكشف في كل يوم
عن جديد ، وتطيئ الستار عن حقائق كانت مجهولة بالأمس .

— ٦ —

وبعد

فهذا هو الجزء الثانى ، مكملًا لموضوعات الجزء الأول . وأرجو أن تكونه
دراستى هذه موفقة ناعمة ، وما التوفيق إلا من عند الله ما

أحمد محمد الحرفى

القاهرة

فى { جمادى الثانية ١٣٧٦
يناير ١٩٥٧

مؤلفاته أسمائها

- خلف أبو حيان إنتاجاً قيمياً كثيراً متنوعاً .
- ذكر ياقوت من مؤلفاته^(١) :
- (١) الهفوات لابن الصابي .
- (٢) الصديق والصدّاقة (الصدّاقة والصديق) .
- (٣) الرد على ابن جني في شعر المتنبي .
- (٤) الإمتاع والمؤانسة . جزآن .
- (٥) الإشارات الإلهمية . جزآن .
- (٦) الزّلفة .
- (٧) المقابسة (المقابسات) .
- (٨) رياض العارفين .
- (٩) تقرّيط الجاحظ .
- (١٠) ذم الوزيرين (وذكره أحياناً باسم مثالب الوزيرين أو أخلاق الوزيرين أو كتاب الوزيرين) .
- (١١) الحج المقلّ إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي .
- (١٢) الرسالة في صلوات الفقهاء في المناظرة .

- (١٣) الرسالة البغدادية .
- (١٤) الرسالة في أخبار الصوفية .
- (١٥) الرسالة الصوفية أيضاً .
- (١٦) الرسالة في الحنين إلى الأوطان .
- (١٧) البصائر . عشرة مجلدات (البصائر والذخائر) .
- (١٨) المحاضرات والمناظرات .
- ولم يذكر يافوت هذه الكتب :
- (١٩) الهوامل والشوامل .
- (٢٠) ثمرات العلوم .
- (٢١) الحبيج^(١) .
- (٢٢) رسالة في العلوم^(٢) .
- وأهل الظن أن كتاب الحبيج هو كتاب الحج العقلي . لكن خصوم أبي حيان حرفوا اسمه ، لينالوا من دينه . وقد عرفنا في تدوينه أنه حجج في جميع من الصوفية .
- (٢٣) رسالة لأبي بكر الطالقاني . ذكرها بروكلمان ، وقال إن منها مخطوطا في لندنبرج .
- (٢٤) رسالة الحياة . ذكرها بروكلمان ، وقال إن منها مخطوطا في مكتبة شهيد علي .

(١) أمراء البيان ٩٣/٢ محمد كرد علي
(٢) مطبوعة بآخر الصداقة والصديق

وهذه المؤلفات أقسام :

(أ) بمضها قد طبع :

- ١ — قالقابسات طبع بالهند ، وطبع بمصر سنة ١٣٤٧ — ١٩٢٩ بتحقيق الأستاذ حسن السندوبى .
- ٢ — والإمتاع والمؤانسة طبع بمصر بتحقيق الأستاذين أحمد أمين وأحمد الزين ، فى ثلاثة أجزاء أولها سنة ١٩٣٩ .
- ٣ — والحوامل والشوامل طبع بمصر سنة ١٣٧٠ — ١٩٥١ بتحقيق الأستاذين أحمد أمين والسيد أحمد صقر .
- ٤ — والبصائر والذخائر طبع بمصر سنة ١٣٧٣ — ١٩٥٣ بتحقيقهما .
- ٥ — والمصداقة والمصديق طبع بالقسطنطينية ١٣٠١ .
- ٦ — والرسالة فى العلوم . رسالة صغيرة طبعت بمصر ملحقة بالمصداقة والمصديق . فى أربع ورقات .
- ٧ — والإشارات الإلهية . طبع بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى . بمصر .

(ب) وبمضها ما زال مخطوطا :

- ١ — مثالب الزبرين . منه نسخة خطية بإحدى مكاتب الأستانة . وقد نقل يا قوت منه كثيرا .
- ٢ — الحجيج . منه نسخة بدارالكتب ببلينجراد^(١) .

(ح) وبعضها مفقود إلى الآن ، ولكن بقيت منها مقتبسات في كتب أخرى :

- ١ — تقریظ الجاحظ . رآه ياقوت بخط المؤلف ، ونقل منه ^(١) .
- ٢ — الهفوات لابن الصابی (يريد صاحب ابن عباد) ذكره ياقوت ^(٢) ونقل منه .
- وأغلب الظن أنه هو مثالب الوزيرین ، أو الجزء الخاص منه بابن عباد .
- ٣ — الزلفة . نقل منه أبو شجاع محمد بن الحسين في ذیل تجارب الأمم ^(٣) .
- ٤ — المحاضرات . ذكره ياقوت ونقل منه كثيرا في أجزاء شتى من المعجم ^(٤) .

(د) أما الكتب التي يغلب على الظن أنها مفقودة ، فهي :

- ١ — الرسالة البندادية .
- ٢ — » في أخبار الصوفية .
- ٣ — » الصوفية .
- ٤ — » في صلات الفقهاء في المناظرة .
- ٥ — » في الحنين إلى الأوطان .
- ٦ — » الرد على ابن جنی في شعر المتنبي .

(١) معجم الأدباء ٢٧/٣ ، ١٥٨/١٠١ ، ١٦٠/٩١ و ٩٥ — ١٠٢

(٢) معجم الأدباء ٧/١٥

(٣) ذیل تجارب الأمم ٧٥

(٤) مثل ١٥٠/٨ و ١٥٠/٨ ، ١٦ — ٤٩ ، ٥١

تحليلها

- ١ -

المقاييسات

موضوعه

١ - سجل فيه ماسمه من فظاحل العلماء في بغداد ، بمجاس صديقه وأستاذه أبي سليمان المنطقي محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني ، إذ كانوا يتذاكرون ويتحاورون في موضوعات شتى من الفلسفة والأدب .

وهؤلاء العلماء من مذاهب متباينة ، فيهم الشيعي والشافعي والمعتزلي والملاحدة والجوسمي والصابي واليهقوبي والنسطوري ، لكن الفاسنة جمتهم ، وحب العلم هذب نفوسهم . وكان الغالب على تفكيرهم مذهب أرسطو ، وكانوا يطلقون لفكرهم العنان ، ولا يريدون غير الوصول إلى الحقيقة .

٢ - وأكثر موضوعاته دائر حول الفلسفة والنفس والتعليل وعلم الكلام الأخلاق . مثل :

والأخلاق المتباينة في الإنسان ^(١) .

شرف الزمان ، والمكان وتفاوت الناس في الفضيلة ^(٢) .

علة تفاوت وقع الأنفاظ في السمع ، والمعاني في النفس ^(٣) .
كتمان السر وإنشاؤه ^(٤) .

١٤٢ (٢)

١٤٠ (١) المقاييسات

١٤٥ (٤)

١٤٤ (٣)

ولوع كل ذى علم بعلمه^(١) .

مبدأ الجواهر الصورية والمادة ، ومبدأ الحكم النقطة والوحدة ، ومبدأ الكيف
السكون والحركة^(٢) .

السمع والغناء وأثرهما في النفس ، وحاجة الطبيعة إلى الصناعة^(٣) .

المناسبة بين المنطق والنحو^(٤) .

السبب في امتناع الرؤيا عند بعض النائمين^(٥) .

الفرق بين طريقة المتكلمين وطريقة الفلاسفة^(٦) .

الكهانة وما يلحق بها من أمور الغيب^(٧) .

الرقى والمزائم^(٨) .

الحظوظ والأرزاق^(٩) .

لماذا لا يعل أهل الجنة التعميم والأكل^(١٠) ؟

الضحك : حقيقته وأسبابه^(١١) .

الفرق بين السكلى والشكل^(١٢) .

١٥٦ (٢)

١٦٩ (٤)

٢٢٣ (٦)

٢٧٠ (٨)

١٩٤ (١٠)

٢٩١ (١٢)

١٤٧ (١)

١٦٣ (٣)

١٩٠ (٥)

٢٢٦ (٧)

٢٤١ (٩)

٢٧٤ (١١)

— ١٣ —

الصديق والصدقة والعشق والحب^(١) .

حكم فلسفية من كلام أبي الحسن العامري^(٢) .

٣ — وبعضها لنوى أدبي مثل :

إنشاء الكلام الجايد أيسر على الأدباء من ترقيع القديم^(٣)

ظرف المكان وظرف الزمان^(٤) .

كلمة طيبة عند النجاة وعند اللذين ، أهي فعيلة بمعنى مفعولة أم بمعنى فاعلة^(٥) ؟

النثر والنظم وأيهما أشد أثرا في النفس^(٦) ؟

ماهية البلاغة والخطابة ، وهل هناك بلاغة أحسن من بلاغة العرب^(٧) ؟

٤ — وقليل منه متصل بالدين والتصوف مثل :

المعاد حق^(٨) .

النوم شاهد على المعاد^(٩) .

طريقته :

١ — سجل ما دار في مجالس الدين خاتمهم فأثبت آراءهم ، ونقل عنهم ..

٣٠١ (٢)

١٧٢ (٤)

٢٤٥ (٦)

٣٤٣ (٨)

٣٥٩ (١)

١٥٣ (٣)

١٧٤ (٥)

٢٩٣ (٧)

٣٥٧ (٩)

من ذلك أنه نقل عن أبي سليمان المنطقي كلاما في تطهير النفس وتجريدها
عن الشوائب البدنية^(١) .

ونقل عن ابن مقdad كلاما في الناموس الإلهي^(٢) .

ونقل عن أبي بكر القومسي كلاما في شرف الزمان والمكان وتفاوت الناس
في الفضيلة^(٣) .

وكما نقل عن أبي سليمان المنطقي كلاما في التعليل لإفشاء السر^(٤) .

ومن الأبطال^(٥) وعن أبي إسحاق الصابي^(٦) وعن الخوارزمي^(٧) وعن
يحيى بن عدي^(٨) .

وكالمقابلة التي سجل فيها ما دار في مجلس أبي سليمان محمد بن طاهر
ابن بهرام السجستاني — وعنده المستبصري والنور شجاني والقديسي
والقوسري وغلالم زحل وغيرهم^(٩) — في علم النجوم وارتباط السفليات
بالهويات .

٢ — لكنه لم يدع أنه وعى كلامهم بنصه ، وإنما يجتهد في نقله جهده ،

مع يقينه أن بعضه ندد منه ، وأنه زاد فيه زيادة لا يستقيم الكلام إلا بها^(١٠) .

١٤٢ (٢)	١١٩ (١) المقابسات
١٤٥ (٤)	١٤٣ (٣)
١٥١ (٦)	١٤٦ (٥)
١٥٦ (٨)	١٥٣ (٧)
١٢٤ (١٠)	١٢٠ (٩)

٣ — وأحيانا يحذف من محاورات العلماء ما لا يرى فيه فائدة ، كما فعل في المقابلة الخاصة بأن الإنسان قد يجمع أخلاقا متباينة ، إذ قل « وكان في كلامهم حشو كثير حصلت خالصة زبدته ، وذكرته في جملة الكلام »^(١) .

٤ — وهو أمين في رواية الخبر ، فهو إذا حذف أو زاد أو شك فيما نقل أشار إلى ذلك وبه عليه ، وإن لم يتصل بمقيدة دينية ، كقوله في إحدى مقابلاته : قلت لأبي سليمان . فما النحو ؟ فقال — على ما يحضرني الساعة من رسمه على غير تصفية حده وتنقيحه — : إنه نظر في كلام العرب يعود بتحصيل ما تألفه وتمتاده^(٢) ...

وقوله في أخرى وهو يروي ما سمع من أبي سليمان المنطوق : « ولما رق كلامه ، واعتاص لفظه ، وسقط عني إتمامُ حلِّ ما كنت حوِّيه ، أثبتته على ما تجده من الفسقى والرفق والرفق الخرف »^(٣) .

ويقول : سمعت بعض مشايخنا ببغداد ، وغالب ظي أنه نظيف الرومي يقول^(٤) ...

ونقل دفاع أبي سليمان عن البعث ، وزاد عليه من عنده^(٥) .

٥ — وكثيرا ما يسأل ، ويثبت إجابة المسترلين .

(١) المقابلات ١٤٠

(٢) ١٧٠

(٣) ٢٩٥

(٤) ٣٤٥

(٥) ٣٥٧

— ١٦ —

فقد سأل وهب بن يعيش الرقي^(١) ، والصينمري^(٢) ، وأبا سليمان^(٣) وهو أكثرهم موردا لسؤاله .

٦ — وكثيرا ما ينقل ويذكر الذين نقل عنهم :

فقد نقل عن أبي إسحاق الصابي^(٤) ، وعن النوشجاني^(٥) ، وعن مقدار^(٦) وعن عبيدة الكاتب^(٧) . وعن البديهي^(٨) وعن أبي إسحاق النصيبي المتكلم^(٩) وعن أرسطو مما ترجمه عيسى بن زرعة المنطقي^(١٠) ، وعن الحراني^(١١) .

نماذج من المقابسات

— ١ —

في شرف الزمانه والسطاه وثقاوت الناس في الفضيلة

قلت لأبي بكر القومسي — وكان كبيرا في الأوائل — : بأي معنى يكون هذا الزمان أشرف من هذا الزمان ، وهذا المكان أفضل من هذا المكان ، وهذا الإنسان أشرف من هذا الإنسان ؟

فقال : هذا يشمر بإفاضة الزمان إلى سمادة شائمة ، وعز غامر ، وبركة

٢٠١ ، ١٦١ (٢)	١٥٧ (١)
٢٦٠ ، ٢٥٩ ، ٢٥٧ ، ٢٤٥ ، ٢٢٣ ، ١٨٢ ، ١٨١ ، ١٧٨ ، ١٦٩ (٣)	
٣١٩ ، ٢٩٣ ، ٢٧٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٥	
١٩٦ ، ١٨٣ (٥)	١٧٩ (٤)
١٩٠ (٧)	١٨٨ (٦)
١٩٤ (٩)	١٩٢ (٨)
٢٦٢ (١١)	١٩٧ (١٠)

فائضة ، وخصب عام ، وشريعة مقبولة ، وخيرات مفعولة ، ومكارم مأثورة ،
من جهة شكل الفلك بما تقتضيه بعض أدواره .
وكذلك المكان إذا قابله أثر من هذه الأجرام الشريفة ، والأعمال المنيفة .
وأما الزمان الذي هو رسم الفلك بحركته الخاصة ، فليس فيه جزء أشرف من
جزء . وكذلك المكان ، لأنه رديف الزمان .
ولا سبيل في مثل هذه المسائل إلى معرفة الحقائق إلا بالأمانة التي هي شاملة
للعالم ، غالبية عليه من محيطه إلى مركزه .

وأما الإنسان فلاشرف له أيضا على إنسان آخر ، من جهة حسده الذي هو
الحياة والنطق والموت ، لأن الحد في كل أحد واحد . فإذا لاشراف من هذا الوجه .
فإن اعتبر بعد هذا فعل هذا وفعل ذاك من جهة الاختيار والإيثار والاكتساب
والاجتلاب ، فذاك يقف على الأشرف فلاشرف ، والأعلى فالأعلى ، بحسب ما يوجد
منظوما في نفسه ، نافعا لغيره ، واقعا موقعه الأحسن منه ^(١) .

في إنشاء الكلام الجدير أيسر على الأدباء من ترقيع القديم
سمعت الخوازمي الكاتب يقول لأبي إسحاق الصابي ابن هيثم بن هلال :
لم إذا قيل لمصنف أو كاتب أو خطيب أو شاعر — في كلمة من كلام قد
اختلف شيء منه ، ويئت قد انحل نظمته ، ولفظ قاصد مكانه — : هات بدل
هذا اللفظ لفظا ، ومكان هذه الكلمة كلمة ، وموضع هذا المعنى معنى ، تهافتت
قوته ، وصعب عليه تسكفنه ، وبسمل — حار ودهش — بمزاولة ذلك رأيته ؟

ولو رام لإنشاء قصيدة مفردة ، أو تحبير رسالة مقترحة كان عسرهما عليه أقل ، وكان نهوضه بها أجمل ؟

فقال : رَفَعَ ما وَهَى يحتاج إلى تدبير قد فات أوله من جهة صاحبه الأول ، ومن كان أولى به ، وكان كالأب له . وذلك شبيه بمسلم الغيب ، وقل من ينفذ في حجب الغيب ، مع العوائق التي دونه .

وليس كذلك إذا افترع هو كلاما ، وابتدأ فعلا ، واقتضب حالا ، فهو يستقل حينئذ بنفسه ، ولا يحتاج فيه إلى شيء كان من غيره ، أو يكون تعلقه بيقظته يعطيه تمام ما قد فَتَحَ عليه سَدَّهُ ، وقَدَحَ عليه زَنَدَهُ . ولم يكن هكذا حاله في كلام معروض عليه ، لم يَهْجَس قط في نفسه ، ولا أَعَدَّ له شيئا من فكره ، فقد يمجّزه ما لم يتأهب له ، ولم يَرْض نفسه عليه .

وفي الجملة كل مبتدئ شيئا ففوة البدء فيه تُفْضِي به إلى غاية ذلك الشيء ، وكل متمقب أوراقد بدأ به غيره فإنه بتمتيمه يفضي إلى حد ما بدأ به في تمقيمه ، وبصير ذلك مبدأ له ، ثم تنقطع المشاكلة بين المبتدئ وبين المتمقب ^(١) .

في أنه الإنسانية أفق ، والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع

قال أرسطو طاليس — فيما ترجم من كلام عيسى بن زُرْعَةَ المنطق البغدادي أبو علي — : الإنسانية أفق ، والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع ، ودائر على مركزه ، إلا أنه مرموق بطبيعته ، ملحوظ بأخلاق بهيمية ، ومن رفع عصاه عن نفسه ، وألقى حبله ، وسيّب هواء في مرعاه ، ولم يضبط نفسه مما تدعو إليه

بطبعه ، وكان لسين المريكة لا تباع الشهوات الرذيلة ، فقد خرج عن أفقه ، وصار إلى أزدل من البهيمة ، لسوء إثاره .

هذا آخر ما ترجمه من هذا الفصل . وهو كما ترى وعظٌ بحكمة ، وإيقاظ برأفة ، وتعليم بنصيحة ، وإرشاد ببيان .

هذا آخر ما ترجمه من هذا الفصل . وهو كما ترى وعظٌ بحكمة ، وإيقاظ برأفة ، وتعليم بنصيحة ، وإرشاد ببيان .

لو روى هذا الحسنُ البصري ومنصور بن عمار وضرباؤها ما زادوا على ذلك . وقد اتفقت آراء الأوائل كلها على إصلاح السيرة ، وتصحيح الاعتقاد ، والسمي فيما أثمر وأجدى ، والإعراض عن كل ما شغل البال وأثار الشهوة ، لتبلغ النفس غايتها ، وتسمع في طاعتها ، ولا يكون لها عكس في هذا العالم ولا تردد ، على ما قد خوف من ذلك كثير منهم ^(١) .

الهوامل والشوامل

صغى الاسم:

(١) فسر الأستاذان أحمد أمين والسيد أحمد صقر الهوامل بأنها الإبل المسيية لا راعى لها ، وقالا : جعل أبو حيان مسائله التى سأل عنها كأنها إبل سائمة لا ضابط لها . وجعل مسكوبه من إجابته عنها رعاة حفظة يرعونها ويضبطون أمرها ثم يجمعونها^(١) .

(٢) لكى أخالفهما فى هذا التأويل .

(١) فالهوامل هى الإبل المهمة المسيية التى لا راعى لها ، فمن الجائز أن أبا حيان أراد بها أسئلته المنطلقة الجرة التى تنتجع من يشبعها ، فهى إذا كالإبل المسيية .

ومن الجائز أن تكون جمعا لهاملة ، من همكت السماء أى دام مطرها فى مسكون^(٢) ، والمراد إذا الأسئلة المنطلقة المتوالية الموجهة إلى ابن مسكوبه ، كأنها المطر النازل الدرار .

(ب) أما الشوامل فهى جمع لكلمة شامل أو شاملة ، من شملهم الأمر إذا عمهم^(٣) ، والمراد إذا الأجوبة الشاملة المحيطة المستوعبة لما فى نفس السائل .

ويصح أن تكون الشوامل جمعا لكلمة شومل ، وهى اسم من أسماء ريح الشمال التى تهب على بلاد العرب من ناحية الشام^(٤) . والمراد إذا الأجوبة

(٢) لسان العرب والقاموس المحيط مادة همل

(٤) اللسان مادة شمل

(١) مقدمة الهوامل والشوامل ٣

(٣) اللسان والقاموس مادة شمل

المنمشة لشوق أبي حيان إلى العلم والمعرفة (فهى جمع شومل) كأنها نسبت
الشمال الهابة على بلاد العرب من ناحية الشام .

وهو كتاب واحد ، وإن كان في كلام أبي حيان ما قد يوم أنهم كتابان ،
لأنه قال في المقابسات : « وهذه مسألة في الهوامل ، ولها جواب آخر في
الشوامل ^(١) » . فهو يريد أن هذا السؤال قد سأل مسكويه في أسئلته التي أطلق عليها
الهوامل ، وله جواب غير جوابه هنا في إجابات مسكويه التي سماها الشوامل =

من الذى سمى الكتاب :

أبو حيان هو الذى سماه ؟

أم ابن مسكويه ^(٢) هو الذى سماه ؟

أرجح أن أبا حيان هو الذى اختار اسم الكتاب ، لأنه كان يرسل إلى ابن
مسكويه سؤاله ، فيبعث إليه بالجواب . وأغلب الظن أن أبا حيان هو الذى جمع
الأسئلة والأجوبة في كتاب .

طريقة الكتاب :

الكتاب كله أسئلة من أبي حيان لمسكويه ، وإجابات من مسكويه على
الأسئلة .

وقد كان أبو حيان عظيم الثقة في مسكويه وفي علمه ، وإن جرّحه في بعض
ما كتب ^(٣) .

(١) المقابسات ١٤٦

(٢) هو أبو علي أحمد بن يعقوب بن مسكويه . وهو يسمى مسدويه فقط عند أبي حيان
عند صاحب طبقات الحكماء (مختصر الزوزنى ٣٣٢) وعند ياقوت (معجم الأدباء ١٠٤٥/٥ ، ١٧٠)
ويسمى ابن مسكويه عند الآخرين ، وفي صدر كتابه تجارب الأمم وتهذيب الأخلاق =
(٣) الإمتاع والمؤاساة ١/٣٥ ، ١٣٥

سأله سائل : هل تخرج الشريعة على مقتضى العقل ، وترد بما تأباه ويخالفه ويكرهه ولا يجيزه ، كذبح الحيوانات ، وكإيجاب الدية على العاقلة ؟
فأجابه أبو حيان ، ثم أراد أن يستوثق من صواب جوابه ، فسأل مسكويه ، وقال له : « وقد جهزت المسألة إليك ، وأنت المدعى بغير العيب العظمى ومكتون الحكمة . فإن تفضلت بالجواب ، وإلا عرضت عليك ما قلت للسائل ، ورويت ما دار بيني وبين المجادل ، فإن كان سديدا عرفته ، وإن كان ضميضا نصحتني فيه ، فالعلم بعيد الساحل ، صديق الغور ، شديد الموج (١) » .

أما ملاحظتنا على الأسئلة فمرى :

١ — بعض الأسئلة ، قصير ، مثل :

ما سر النفس الشريفة في إثارة النظافة (٢) .

ما القراسة وماذا يراد بها (٣) ؟

ما ملتصق النفس في هذا العالم (٤)

ما سبب استشعار الخوف بلا مخيف (٥)

ما السبب في محبة الإنسان الرئاسة (٦) ؟

لم صار العروضي ردىء الشعر ؟ والطموح على خلافه ؟ ألم تبين العروض على الطبع ؟ فما بالها تخون ؟ (٧)

ما علة كراهية النفس الحديث المعاد ؟ (٨)

(١) الهوامل والشوامل ٣١٥

(٢) الهوامل والشوامل ١٥٨

(٣) ١٦٦ (٤) ١٧٩

(٥) ١٨٣ (٦) ١٩٤

(٧) ٢٨٢ (٨) ٣١٤

واستفسر عن كلمات لأحمد بن عبد الوهاب في معاينة الجاحظ^(١)
لم كان صوت الرعد إلى آذاننا أبطأ وأبعد من رؤية البرق إلى أبصارنا^(٢) .
ما السبب في صحة بعض الرؤى وفساد بعضها ؟ ولم لم تصح الرؤى كلها ؟
أو لم تفسد كلها ؟ وعلام يدل ترجحها بين هذين الطرفين^(٣) ؟

٣ — وبعضها مبسوط مفصل ، لأن أبا حيان شقق من السؤال موضوعات
ومسائل ، كقوله في المسألة رقم (٤٩) :

ما السبب في تصافى شخصين لا تشابه بينهما في الصورة ، ولا تشا كل عندهما في
الخلق ، ولا تجاور بينهما في الدار ، كواحد من قرغانه^(٤) وآخر من تأهرت^(٥)
وهذا طويل قويم ، وهذا قصير دميم . وهذا شخت^(٦) عجيف^(٧) ، وهذا عالج^(٨)
عجيف^(٩) وهذا أزب^(١٠) أشعر^(١١) وهذا أمعر^(١٢) أزعر^(١٣) وهذا أعيا من
ياقل ، وهذا أبلغ من سحبان وائل . وهذا أجود من السحاب إذا سح^(١٤)
يودق^(١٥) وهو برق ، وهذا أبخل من كلب على عرق إذا ظفر بعرق^(١٥)

(١) ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧

(٢) ٣٦٥ (٣) ١٢٥

(٤) مدينة وكورة واسعة وراء النهر متاخمة لتركستان

(٥) اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب

(٦) الشخت : السجف

(٧) عجيف : غليظ العظام لالحم عليها

(٨) العالج : الشديد العليظ

(٩) جاف : جاف أحق

(١٠) أزب : كثير شعر الدراعين والراحين والعينين

(١١) أشعر : كثير شعر الرأس والجسد ، طويله

(١٢) أمعر : قليل الشعر

(١٣) أزعر : قليل الشعر ومتفرقه

(١٤) الودق : المطر

(١٥) العرق : العظم الذي أخذ عنه معظم اللحم

وبينهما من الخلاف والاختلاف ما يُسَجِّب الناظر إليهما والفاحص عن أمرهما .
وعلى ذكر الخلاف والاختلاف ، ما الخلاف والاختلاف ؟ وما الإلـف
والائتلاف ؟

نعم ، ثم لا تراهما إلا متمازجين في الأخذ والإعطاء ، والصدق والوفاء ، والعقد
والولاء ، والذوق والنماء ، بغير تحلة عامة ، ولا مقالة ضامة ، ولا حال جامعة ،
ولا طبيعة مضارعة .

ثم هذا التصافي ليس يختص ذكراً وذكراً دون ذكر وأنثى ، ودون
أنثى وأنثى .

وإذا نفَس الاعتبار أدى إلى طرق مختلفة : منها أن التصافي قد يمتد وقد
ينقطع ، ففيما يمتد ما يبلغ آخر الدهر ، وفيما ينقطع ما لا يثبت إلا شهراً أو أقل
من شهر .

ومن أعجب ما ينبع منه المداوة والشحناء والحسد والبغضاء ، حتى كأن ذلك
التصافي كان عين التنافى ، وحتى يفضى إلى عظام الأمور ، وإلى غرائب الشرور ،
وإلى ما يُتقنى التالذ والطارف ، ويأتى على البقية المرجوة .
وربما سرت المداوة في الأولاد كأنها بعض الإرث ، وربما زادت على ما كان
بين الآباء .

وهذا باب عسير ، وللمعجب فيه مجال وموقع ، والملل فيه مخبوءة . ولما
تصيب في زمانك هذا ذهناً يولع بالبحث عن غامضه ، ويلسججُ بالمسألة
عن مُشكلة .

وليتهم إذ زهدوا في هذه الحسك لم يقذفوا الخائفين فيها ، والمنقسمين عنها
بالتهم ^(١) .

وكذلك فعل في السؤال رقم (٥٠) فهو يستغرق صفحتين كاملتين^(١)
وأحيانا يفرع من السؤال عدة أسئلة ، أو يولد من الفكرة أفكارا ، فهو
يتممق في سؤاله تعمق من يبتنى الوقوف على العلة الأولى .

وقد شعر ابن مسكويه بذلك فطالبه بالرفق ، واعتذرله بأنه لا يدعى العلم بكل
ما يريد الإجابة عليه . يتضح ذلك من سؤاله الآتي :

لم تواسى الناس في جميع اللغات والنحل ، وسائر المادات والملل ، بالزهد في
الدنيا ، والتقلل منها ، والرضا بما زَجَا به الوقت (يسره) وتيسر مع الحال ؟
هذا مع شدة الحرص والطلب ، وإفراط الشدة والكَلَب ، وركوب البر
والبحر بسبب ربح قليل ونائل نَزُر ، حتى إنك لا تجد على أديمها إلا متلفئا إلى
غايها حزينا ، أو هائما على حاضرها مفتونا ، أو متمنيا لها في المستقبل مُعنى ،
وحتى لو تصفحت الناس لم تجد إلا متحسرا عليها ، أو متحيرا فيها ، أو مُسكرًا منها
وأشرفهم عقلا أعظمهم خَبَلا ، وأشدهم فيها إزهادا (حثا على الزهد) أشدهم
بها انقادا ، وأكثرهم في بنفسها دعوى أكثرهم في حبها بلوى .

وهات السبب في ذلك والعلة .

وعلى ذكر السبب والعلة ، فما السبب والعلة ؟ وما الواصل بينهما إن كان واصل ؟
وهل ينوب أحدهما عن الآخر ؟

وإن كانت هناك نيابة أفهى في كل مكان وزمان ؟ أو في مكان دون مكان ؟
وزمان دون زمان ؟

وعلى ذكر المكان والزمان ، ما الزمان وما المكان ؟ وما وجه التباس أحدهما
بالآخر ؟ وهل الوقت والزمان واحد ؟ والدهر والحين واحد ؟

وإن كان كذا فكيف يكون شيئان شيئاً ؟ وإن جاز أن يكون شيئان شيئاً واحداً ، فهل يجوز أن يكون شيء واحد شيئين اثنين ؟ هذا — أيدك الله — فن يَنْشَفُ الرِّيقَ ، وَيُضْرَعُ الحَدَّ ، وَيُجَبِّشُ النَفْسَ ، وَيَفْضَحُ المَدَى ، ويبحث على الاعتراف بالتفسير والمعجز ، ويدل على توحيد من هو محيط بهذه الغوامض والحقائق ، ويبحث على عبادة من هو عالم بهذه السرائر والدقائق ... ويبين أن العلم بحر ، وفاتت الداس أكثر من مُسَدِّدٍ كـ ، وبجهوله أضاف معلومه ، وظنه أكثر من يقينه . . . »

فأجابه مسكويه ، وصدر إجابته بقوله :

هذه المسألة مُوسَّحَةٌ بعدة مسائل طبيعية ، وقد جعلتها مسألة واحدة .
ولعل التي صيرتها أذنانا هي أشبه بأن تسكون رهوساً .

وقد عرض لك فيها عارض من العُجَبِ ، وساخ من التَّيْسِ ، فخطرت
خطران الفحل (١) ومشيت المِرَّ ضَنْدَةً (٢) . . . فلو تركت هذا الغرض
للمتكلم على مسائلك .

أدرك بنا أبا حيان — رفق الله بك — وأرئخ من خناقنا ، وأسفننا ريقنا
ودعنا وما نعرفه في أنفسنا من النقص ، فإنه عظيم ، وما بُلينا به من الشكوك فإنه
كثير . ولا تُسَبِّكُنَا بِجَهْلٍ ما علمناه وفوت ما أدر كنهنا . . . (٣)
ومثل قوله :

ما ملتمس النفس في هذا العالم ؟

(١) خطر الفحل بذنبه : رفعه مرات وشرب به ما ظهر من تغذية يميناً وشمالاً وذلك
عند صلاته ولشاطه من الشبع والسود . كناية عن العجب

(٢) المرصنة : الاعتراض في السير من النشاط . وهذا كناية عن العجب

(٣) المواميل والشواغل ٢٤

وهل لها ملتمس وبقية ؟
وإن وُشِرِمتْ بهذه المعاني خرَّجتْ من أن تكون عِلية الدرجة ، خطيرة
القدر ، لأن هذا عنوان الحاجة ، وبدء المعجز .
ولولا أن يتسع النطاق لسألت : مانسبتها إلى الإنسان ؟ وهل لها به قِوام ؟
أوله بها قوام ؟ وإن كان هذا فعلى أى وجه هو ؟
وأوسع من هذا الفضاء حديث الإنسان ، فإن الإنسان قد أشكل عليه الإنسان ،
وكان فى الأسئلة ما أهمل الإجابة عليه مسكويه بدليل قوله « ثم حكيت
حكايات ليس لها غناء فى المسألة ، فلنشتغل بالجواب » (١)

٣ — بعض الأسئلة ذو قيمة ، كالأسئلة التى مرت .
وبعضها تافه كقوله :

لم يشمئز الإنسان من جرح قد فُغِر فوه ، حتى إنه لينفر من النظر إليه
والدنوّ منه ؟ (٢)

ما السبب فى أن الذين يموتون وهم شبان أكثر من الذين يموتون وهم شبوخ (٣)
ما معنى قول بعض القدماء : العالم أطول عمرا من الجاهل بكثير ، وإن كان
أقصر عمرا منه (٤) ؟

٤ — أما طريقة مسكويه فى الإجابة ، فإنها فى الأهم الأغلب مفصلة .

(١) الهوامل والشوامل ١٧٩

(٢) الهوامل والشوامل ١٤٥

(٣) ٢٣٨ (٤) ٢٨٤

وفي قليل منها إيجاز وإيماء ، أو إحالة على معلوم ، أو على جواب سابق^(١) .
وربما يرفض الإجابة ، كقوله : ذكرت — أيدك الله — مسائل لا تستحق
الجواب من آراء العامة ، وجهالات وقمت لهم ، مثل قولهم : إذا دخل الذباب
في ثياب أحدهم يمرض . وقولهم : دِيةُ نَمْلَةٍ تمرّة ... وهذه المسائل وأشباهها إنما
ينبغي أن يُهرأ بها ، ويُسمَلَح بإيرادها على طريق النادرة . فأما أن تطالب لها
أجوبة ، فما ظن عاقلًا يعترف بها ، فكيف نجيب عنها ؟ والله ينفرك ويصلحك^(٢)

موضوعاته

الكتاب — من حيث الأسئلة والإجابات — بستان حافل بمندوف المعرفة
المتنوعة ، لا جامع لها ولا ضابط .

ولهذا عنون أبو حيان لبعضها ، وترك الآخر غفلاً .

١ — ففيه (مسائل إرادية) كقوله : لم تَمُجِّج مدح الإنسان لنفسه ، وحسن
مدحه لغيره ؟ .

وما الذي يحب المدوح من المادح ؟ وما سبب ذلك^(٣) ؟
وكقوله :

ما الذي يجده الإنسان في تشبيه الشيء بالشيء حتى يخطر ذلك المعنى على قلبه ،
ويلهج بذكره في قوافيه ونثره ؟

ولماذا — إذا لم يكن التشبيه واقعا ، والمعنى فيه بارعا — أورث الصدود
ومنع الاستحسان^(٤) ؟

(١) الهوامل والشواهد ١٣، ٢٦، ١٠٨، ١٨٠، ٢٠١، ٢٠٨، ٢٢٠، ٢٥٥، ٣٣٥

(٢) الهوامل والشواهد ٣٣٩

(٣) الهوامل والشواهد ١١٧ (٤) ١٢٤

٢ — (وفيه مسائل اختيارية) . وهو يريد بهما كان في طاقة الشخص أن يفعله أو يتركه ، فهي كالإرادية .

مثل قوله :

لم قبح الثناء في الوجه حتى تواطئوا على تزييفه^(١) ؟

٣ — وفيه (مسائل نفسانية) كقوله :

ما علة حضور المذكور عند مَقْطَعِ ذِكْرِهِ ، وهو لا يُتَوَقَّعُ فِيهِ^(٢) ؟

٤ — ومسائل في مبادئ العادات ، كقوله :

ما مبدأ العادات المختلفة من هذه الأمم المتباعدة ؟ وما هذا الباعث الذي رَتَّبَ كل قوم في الزى وفي الحلية وفي العبارة والحركة على حدود لا يمتدونها^(٣) ؟

٥ — ومسائل طبيعية كقوله .

ما السبب في اشتياق الإنسان إلى ما مضى من صمره ، حتى إنه ليحن حنين الإبل ، وببكي بكاء التملل ، ويطول فكرُهُ بتخيله ما ساف^(٤) ؟ .

وكقوله :

ما سبب من يدعى العلم وهو يعلم أنه لا علم عنده^(٥) ؟

لم صار الأعمى يجذب فائته من البصر في شيء آخر ؟ كما نجد من العميان مَنْ يكون نَدِيَّ الحلق ، طيب الصوت ، غزير العلم ، مريع الحفظ ، قليل الهم ، طويل التمتع^(٦) ؟

وكقوله :

لم كانت النجاة في النحاف أكثر؟ ولم كانت الفسولة في السماء أكثر؟ (١)

٦ — ومسائل خلقية ، كقوله :

لم اقترن العجب بالعالم ، والعلم يوجب خلاف ذلك من التواضع والرفة وتحقير النفس والزراية عليها بالمعجز (٢) ؟

لم 'خص' اللثيم بالحلم ؟ وخص الجواد بالحدة (٣) ؟

لم تحاث الناس على كتمان الأسرار ، ومن أين كان فشوقها مع الاحتياط في طيها (٤) ؟

٧ — ومسائل طبيعية وخلقية مما ، كقوله :

ما سبب الصيت الذي يتفق لبعضهم بعد موته ، وأنه يعيش خاملاً ، ويشتهر ميتاً (٥) ؟

ما سبب الجزع من الموت ؟ وما الاسترسال إلى الموت (٦) ؟

لم صار بعض الناس إذا سئل عن عمره نقص في الخبر ، وآخر يزيد على عمره في الخبر (٧) ؟

٨ — وفيه مسائل طبيعية واختيارية كقوله :

لم كان الإنسان محتاجاً إلى أن يتعلم العلم ؟ ولا يحتاج إلى أن يتعلم الجمل ؟

٧٦ (١)	٤٠ (٢)
٥٠ (٣)	١٥ (٤)
٦٩ (٥)	٧٢ (٦)
	٧٨ (٧)

لأنه في الأصل يوجد جاهلا ؟ فما علة ذلك (١) ؟
لم قال الناس : لا خير في الشركة (٢) ؟

٩ — ومسائل لغوية :

كان أول سؤال وجهه إلى مسكويه هو التفرقة بين كليات لغوية كالمجلة
والسرعة والهنزل والمزح والتكلم والنطق والسرور والجهور الخ (٣)

١٠ — ومسائل لغوية وطبيعة كقولہ :

لم كان اسم أخف عند السماع من اسم ؟
ولم كان هذا المارض الموجود في الأسماء والسكنى والشمايل والحسلى والصور
والبرنى والأخلاق وإلخلق والبلدان والأزمان (٤) ؟

١١ — ومسائل زجرية ولغوية ، مثل قوله :

لم صار الرجل إذا لبس كل شيء جديد قيل له : خذ منك بعض ما لا يشاكل
ما عليك ليكون وقاية لك ؟

وعلى ذكر المشاكلة ما المشاكلة والواقعة والمضاربة والمائلة والمادلة
والمناسبة (٥) ؟

١٢ — ومسائل طبية ، كقولہ :

لم صار الصرع من بين الأمراض صعب العلاج ؟

(١) الموامل والشواغل ٥٢

(٢) ٦٤ (٣) ٥ (٤) ٢٠

(٥) ٨٨

ويقال إنه فيمن طعن في السن أسحب ، وفي الصبي اللين المود أقرب أمراه
وأسهل برء^(١)

١٣ — وأحياناً يعنون للسؤال بمدة أمور ، كقولهم : مسألة إرادية وخلقية
ولغوية^(٢) .

وقد يعنون بكلمة مسألة ، ثم يذكر السؤال
كالمسألة رقم (٣٥)

ما معنى قول الناس : هذا من الله ، وهذا بالله ، وهذا إلى الله ، وهذا
على الله^(٣) ...

والمسألة رقم (٣٦)

ما الإلف الذى يجده الإنسان لمكان يكثّر القعود فيه ، والشخص يتقدم
الأنس به^(٤)

والمسألة رقم (٣٨)

والمسألة رقم (٣٩)

لم صار بعض الناس يولع بالتبذير مع علمه بسوء عاقبته ؟

وآخر يولم بالتقتير مع علمه بقبح القالة فيه^(٥) ؟

وكذلك المسائل من المسألة رقم ٥٠ إلى ١٧٥ وهى أكثر الكتاب .

(١) ١١٢

(٢) ١١٨

(٣) ١٠٨ (٤) ١١٠ (٥) ١١٥

أسلوب الإجابات :

قلنا إن أبا حيان كان دقيقا أميناً في نقله وفي روايته ، فإذا نقل النص بحروفه نبه على ذلك ، وإذا نقله بالمعنى اعترف بذلك ، وإذا تصرف فيه بزيادة أو نقص سارع فقرر ذلك .

فهل تصرف أبو حيان في أسلوب الإجابات التي بمنها إليه مسكويه ؟
لا . لم يتصرف أبو حيان في شيء ، وإنما أثبت كلمات مسكويه على حالها .
والدليل على هذا :

١ — أن أبا حيان لم يحذف من كلام مسكويه ما فيه مساس به أو بذاك كرتة (١) أو بسؤاله من أشياء ليس لها غناء (٢) .

٢ — أما الدليل الآخر فهو أن أسلوب مسكويه في الجواب هو أسلوبه في كتابه تهذيب الأخلاق ، ولا تشابه بين أسلوب أبي حيان وأسلوب مسكويه .
وهذا مثال لأسلوب مسكويه في الهوامل والشوامل ، ومثال لأسلوبه في كتابه تهذيب الأخلاق .

(١) سأل أبو حيان مسكويه :

متى تتصل النفس بالبدن ؟ ومتى توجد فيه ؟ أفي حال ما يكون جنينا أم قبلها أم بعدها ؟

فأجابه بقوله : إن اتصال النفس بالبدن ووجودها فيه ألفاظ متسم فيها .
والأولى أن يقال : ظهور أثر النفس في البدن على قدر استعداد البدن

(١) الهوامل والشوامل ٢٤ (٢) ١٧٩

وقبوله لإياه . وإنما تخرزنا من تلك الألفاظ لأنها توهم أن لها اتصالا هرضيا وجسميا ، وكلا هذين غير مطلق على النفس .

والأشبه إذا عبرنا عن هذا المعنى أن نقول :

إن النفس جوهر بسيط إذا حضر مزاج^١ مستعد لأن يقبل له أثر^٢ كان ظهور ذلك الأثر على حسب ذلك الاستعداد ، لتسلم بهذه العبارة من ظن من زعم أن النفس تتقلب وتعمل أفعالها على سبيل القصد والاختيار . أعني أنها تفعل في حال ، وتمنع في أخرى ، فإن هذا يجلب كثيرا من الشكوك التي لا تليق بخصائص النفس وأفعالها . وإذا قد تحققت هذه العبارة فنقول : إن النطفة التي يكون منها الجنين إذا حصلت في الرحم الموافق كان أول ما يظهر فيه من أثر الطبيعة ما يظهر مثله في الأشياء المادية . أعني أن الحرارة اللطيفة تنضجه وتمنحه وتعطيه — إذا امتزج بالماء الذي يوافقه من شهوة الأنثى — صورة مركبة ، كما يكون ذلك في اللبن إذا مزج بالإفحة (١)

(ب) قال مسكويه في كتاب تهذيب الأخلاق :

« لما وجدنا في الإنسان شيئا ما يضاد أفعال الأجسام بحده وخواصه ، وله أيضا أفعال تضاد أفعال الجسم وخواصه ، حتى لا يشاركه في حال من الأحوال ، وكذلك نجده يباين الأعراض ويضادها كلها غاية المباينة ، ثم وجدنا هذه المباينة والمضادة للأجسام والأعراض إنما هي من حيث كانت الأجسام أجساما والأعراض أعراضا ، حكمنا بأن هذا الشيء ليس بجسم ولا جزء من جسم ولا عرضا . وذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأيضا فإنه يدرك جميع الأشياء بالسوية ، ولا يلحقه فتور ، ولا كلال ولا نقص (٢) »

وقال في آداب الصداقة :

« يجب عليك متى حصل لك صديق أن تسكّر مراعاته ، وتبالح في لفقده ، ولا تستهن باليسير من حقه ، عند مهم يمرض له ، أو حادث يحدث به .

فأما في أوقات الرخاء فينبغي أن تلقاه بالوجه الطلق ، والخلق الرحب ، وأن تظهر له — في عينك وحركانك وفي بشاشتك وارتياحك عند مشاهدته إياك — ما يزداد به في كل يوم وكل حال ثقة بمودتك ، وسكوننا إليك ، ويرى السرور في جميع أعضائك التي يظهر السرور فيها إذا لقيك . فإن التحفى الشديد عند طلمة الصديق لا يخفى ، و سرور الشكل بالشكل أمر غير مشكل .

ثم ينبغي أن تفعل مثل ذلك بمن تعلم أنه يؤثره ويحببه من صديق أو ولد أو تابع أو حاشية ، وتثني عليهم من غير إسراف يخرج بك إلى الملق الذي يمتنك عليه ، ويظهر له منك تسكاف .

وأما يتم لك ذلك إذا توخيت الصدق في كل ما تثني به . والزم هذه الطريقة حتى لا يقع منك توان فيها بوجه من الوجوه ، وفي حال من الأحوال ، فإن ذلك يجلب المحبة الخالصة ، ويكسب الثقة العامة ^(١) »

- ٣٦ -

نماذج من الهوامل والشوامل

- ١ -

مسألة طبيعية

ما سبب من يدمى العلم وهو يعلم أنه لا علم عنده ؟ وما الذى يحمله على
الدهوى ، ويدنيه من المكابرة ، ويحوجه إلى السفه والمهاترة ؟

الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله - :

سبب ذلك محبة الإنسان نفسه ، وشهوره بموضع الفضيلة ، فهو لأجل المحبة
يدمى لها ما ليس لها ؛ لأن سورة النفس التى بهما تحسّن ، وعليها تحصل ،
ومن أجلها تسعد - هى العلوم والمعارف ، وإذا عريت منها أو من جلها حصلت
له من القايح ووجوه الشقاء بحسب ما يفوتها من ذلك .

ومن شأن المحبة أن تغطى المساوىء ، وتظهر المحاسن إن كانت موجودة ؛
وتدعيها إن كانت معدومة ، فإن كان هذا من قبل المحبة معلوما ، وكانت النفس
محبوبة لا محالة ، عرض لصاحبها عارض المحبة . فلم ينسكرا ادعاء الإنسان له
المعارف التى هى فضائلها ومحاسنها ، وإن لم يكن عندها شيء من ذلك ؟^(١)

مسألة اختيارية

لم قبح الثناء في الوجه حتى تواطئوا على تزييفه ؟ ولم حسن في المغيب حتى
عنى ذلك بكل معنى ؟ لأن الثناء في الوجه أشبه الملق والخديعة ؟ وفي المغيب
أشبه الإخلاص والتكرمة ؟ أم لغير ذلك ؟

الجواب .

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

لما كان الثناء في الوجه على الأكثر إعاراة شهادة بفضائل النفس ، وخديعة
للإنسان بهذه الشهادة ، حتى صار ذلك — لاغتراره وتركه كثيراً من الاجتهاد
في تحصيل الفضائل ، وغرض فاعل ذلك احتراز مودة صاحبه إلى نفسه
بإظهار مودته له ومحبتة إياه — صار كالسكر والحيلة ، فذم وعيب . فأما في المغيب
فإنما حسن ؛ لأن قصد المثني في الأكثر الاعتراف بفضائل غيره ،
والصدق عنه فيها .

وفي ذلك تنبيه على مكان الفضل ، وبعث للموصوف والستمع على الازدياد
والإتمام ، وحض على أسبابه وعمله .

وربما كان القصد خلاف ذلك ، أعنى أن يكون غرض المثني في المغيب
مخادعة المثني عليه ، والطمع في أن يثمنه ذلك ، فيتلفق عليه ، ويستميله ،
ويستجير به منافعه ، وهو حينئذ شبيه بالحالة الأولى ، ومشتبه به .

— ٣٨ —

وربما قصد الأول في الثناء والمدح في الوجه الصدق لا الملق ، فيصير مستحسنا إلا بقدر ما يُظنُّ أن المدوح يفتنه به ، فيُتَصَرُّ في الاجتهاد .
فقد تبين أن الثناء يحسن بحسب قصد المثني وأغراضه ، وبحسب صدقه فيه وكذبه ، وعلى قدر استصلاحه للمثني عليه أو استفساده ، ولكن الأمر محمول على الغالب في الظن والمادة فيه .
ولما كان الأمر على الأكثر كما ذكرناه وعلى ما حكيناه - قبح في الوجه وحسن في الغيب ، وإن جاز أن يقع بالضد فيحسن في الوجه ويقبح في الغيب (١) .

— ٣ —

مسألة طبيعية غريبة

ما سبب الصيت الذي يتفق لهمضهم بعد موته ، وأنه يمشي غاملا ، ويشتهر ميثا ، كمعروف الكروني ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :

معظم السبب في ذلك الحسد الذي يمتري أكثر الناس ، لا سيما إذا كان الحسود قريب المنزلة من الحاسد ، أو كان في درجته من النسب أو الولاية والبلدية أو ما أشبهها ، فإن هذه النسب إذا تقاربت بين الناس فاشتركوا فيها ثم انفرد واحد بفضيلة نafسه الباقون فيها ؛ وحسدوه إياها ، حتى يحملهم الأمر

على أن يجحدوه آخر الأمر ، ولذلك قيل : أزهّد الناس في عالم جيرانه ، لأن الجوار وكثرة الاختلاط سبب جامع لهم يتساوون فيه ، فإذا انفرد أحدهم بفضيلة لحق الباقين ما ذكرته .

وربما كان سبب زهدهم فيه غير هذا ، ولكن الأغلب ما ذكرته .

فأما البعيد الأجنبي فإنه لما لم يجمعه وإياه سبب ، خف عليه تسليم الفضل له ، وقل عارض الحسد فيه ؛ ولأجل ذلك إذا مات المحسود ، وانقطع السبب الذي بينه وبين الحساد أنشئوا بفضلونه ، ويسلمون له ما منعه إياه في حياته^(١) .

— ٤ —

مسألة خالصة

لم سار بعض الناس إذا سئل عن عمره نقص في الخبر ، وآخر يزيد على عمره في الخبر ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :

غرض الرجلين جيماً أعنى الناقص من مدة عمره ، والزائد فيها - غرض واحد ، وإن اختلفا في الخبر .

وربما فعل الرجل الواحد ذلك بحسب زمانين مختلفين ، أو بحسب حالين في زمان واحد .

وهو من رذائل الأخلاق ؛ لأنه يوم بالكذب فضيلة لنفسه ليست فيها -

وسبب هذا الفعل محبة النفس ؛ وذلك أن الإنسان يحب أن يمتد فيه من الفضل أكثر مما هو ، ويجب أن يمد في نقص إن وجد فيه .

وهو إذا كان حديثاً وظهرت منه فضيلة أو نقيصة نقص من زمان عمره ، ليعلم غيره أن الفضيلة حصلت له في زمان قصير ، وأن ذلك لم يكن ليتم له إلا بعناية كثيرة ، وحرص شديد ، ونفس كريهة ، وانصراف عن الشهوات العالية على أقرانه ، وترك اللعب الذي هو يستولى على لداته ؛ وكلما كان الزمان أقصر كان إلى الفضيلة أقرب ، وكان التعجب منه أكثر ...

وإن كانت منه نقيصة مُذِر في فعله لقلة الحكمة والدربة ، وانتظر فلاحه ، ورجى تلافيه وإناجته .

وإن الإنسان مرشح طول عمره لاقتناء الفضائل ، والاستكثار من المعارف ، ويجب أن يكون أبداً بحال من الفضل يُستكثر في مثل سنه أن يبلغ إليها ، أو يُعجب من كثرة تدريبه بالزمان القصير في الأمور التي يحتاج فيها إلى الزمان الطويل .

وأيضاً فإن المسكتل ، وذا السن ، الكثير التجربة ممن صاحب الزمان ، ولقى الرجال ، وتصرف في العلوم — مهيب في النفوس ، جليل في الصدور موقر في المجالس ، ومستشار في النوائب ، مرجوع إليه في الرأي . وهذه حال مرغوب فيها ، فإذا بلغ الإنسان من السن ما يحتمل أن يدعى فيه هذه الدعوى ، أو يشبه نفسه بأصحاب هذه المراتب — زاد في عمره ؛ لتسلم له هذه المرتبة فتمتد فيه .

فكل واحد من الرجلين ، أو الرجل الواحد في الزمانين أو الحالتين ، غايته

— ٤١ —

ن التكدب بما ينقص أو يزيد من عمره ، التمويه بالفضل ، وادعاء رتبة
يست له .

وهذا شر ظاهر ، فتعاطيه شرير ، وأفاضل الناس لا يعتريهم هذا الشر ،
لأنهم لا يتدنسون بالكذب ، ولا يتكثرون بالباطل ^(١) .

— ٥ —

مسألة

لم صار لبعض الناس يولع بالتبذير مع علمه بسوء عاقبته ؟
وآخر يولع بالتقير مع علمه بتبجح القالة فيه ؟
وما الفرق بين الرزق والمالك ؟ فقد قال لى شيخ من الفلاسفة — وقد
سمعى أشكوا الحال — يا هذا ، أنت قليل المالك كثير الرزق ، وكمن كثير
المالك قليل الرزق ^(٢) ، احمد الله عز وجل .

الجواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله — :
قد تقدم لنا فى هذه المسائل كلام فى السبب الذى يختار الناس له فعل

(١) ٧٨

(٢) لعله يريد أن الرزق أوسع من المالك ، لأن المالك حيازة المال ، أما الرزق فيشمل
ما وهب الإنسان من مال وذكاء وعلم وخلق

ما تقبح عاقبته مع علمهم بذلك ، وضربنا فيه المثل بالمريض الذى يعلم أن تناول
الغذاء الضار يُبطل صحته ، فإن الغذاء إنما احتيج إليه للصحة ، فيستختر
للشهوة الحاضرة أخذَ الغذاء الضار بسوء ملكته ، وضبطه لنفسه ، وانقياده
للنفس البهيمية ، وعصيانَه للنفس الناطقة ، ولا وجه لإعادته .

وكذلك قد بينا ما تسيء الرزق ، والفرق بين المالك والرزق ، وإذا قرأته
مما تقدم كان جواباً لهذه المسألة^(١) .

- ٣ -

الإمتاع والمؤانسة

لمن ألفه ؟

١ - عرفنا في صلات أبي حيان بوزراء عصره أنه اتصل بالوزير

ابن سمدان .

وابن سمدان هذا هو - كما رجح الأستاذ أحمد أمين - أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سمدان ، وزير حمصام الدولة البويهى من ٣٧٣ إلى ٣٧٥ هـ ، وهو الذى ألف له أبو حيان كتاب الصداقة والصديق سنة ٣٧١ هـ قبل أن يتولى الوزارة (١) .

وهو لم يؤلف هذا الكتاب جملة ، ليهديه إلى ابن سمدان ، وإنما سامره به وحده فى سبع وثلاثين ليلة .

وكان ابن سمدان - كما يصوره أبو حيان - مشغولاً بالمعرفة من فنون شتى . كالفلسفة والأخلاق والأدب واللغة والدين والإلهيات .

وكثيراً ما سأل أبا حيان وحاوره ، ونقد إجابته ، سواء أكانت من محفوظ أبي حيان أم من اجتهاده ورأيه .

وكان مجالسه مجماً للأدباء والعلماء كابن حجاج الشاعر ، وأبي عبيد الخطيب ، الكاتب ، وأبي حيان التوحيدى ، وابن مسكويه المؤرخ المتفلسف ، وأبي على عيسى بن زرعة النعمانى المتفلسف ، وأبي الوفاء المهندس ، وابن بكر ، وأبي

القاسم الأهوازي ، وأبي سمد بهرام بن أردشير ، وابن شاهويه ، وزيد ابن رفاعه وغيرهم^(١) .

وكان يباهى بجلسته ، وبما يدور في مجالسه من علم وأدب ، وينافس الوزراء والأمراء المعاصرين له ، مثل ابن العميد والصاحب ابن عباد والهلبى . من ذلك قوله في وصف جلسته : « والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، وإنماهم لأعيان أهل الفضل ، وسادة ذوى العقل . وإذا خلا العراق منهم فرفقن^(٢) على الحكمة المروية والأدب المتهادى .

أنظن أن جميع نداء الهلبى يقون بواحد من هؤلاء ؟ أو تستدّر أن جميع أصحاب ابن العميد يشبهون أقلّ من فيهم ؟

فقال له أبو حيان : هذا ابن عباد بالرى ، وهو من يُسرّف ويُسمع . فقال ابن سمدان : « ويحك ، وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدل الذى يشغبون ويحمقون ويتصايحون ، وهو فيما بينهم يصيح ويقول : قال شيخنا أبو على وأبو هاشم^(٣)

وكان أبو الوفاء المهندس (محمود بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس البوزنجاني المولود سنة ٣٢٨ والمتوفى سنة ٣٨٨ هـ) صديقا لأبي حيان ، وللوزير ابن سمدان ، فعرف الوزير بأبي حيان ، فقر به ، واتخذ من سمّاره .

ثم عاتب أبو الوفاء أبا حيان على أنه اختص الوزير بسمره ، وذكره بفضله

(١) الصداقة والصديق ٣١

(٢) رفقن : الترفيق والترقيم ونقط الخط وإعجابه ليتبين . والمراد أن الحكمة بعد هؤلاء تصير مبهمة في حاجة إلى من يحلوها

(٣) الصداقة والصديق ٣٣

عليه في تقديمه إلى ابن سمدان ، وطلب منه أن يكتب له كل ما قصه على الوزير في لياليه ، وشدد في طلبه ، وهدده أن يحرقه ويمارقه إن لم يستجب .

فاستجاب أبو حيان ، ودون مسامراته في هذا الكتاب^(١) . وزاد في الحسن ، ونقص من القبيح^(٢) . وكان يرسله إلى أبي الوفاء أجزاء ، لأنه قال في أول الجزء الثالث : أو صلت إليك الجزأين الأول والثاني على يد غلامك فائق ، وهذا الجزء هو الثالث^(٣) .

وكان أبو الوفاء هذا بارعا في الهندسة والجبر والفلك ، وله مؤلفات فيها .

وكان من المقربين إلى ابن سمدان ، وقد وصفه ابن سمدان فيمن وصف من رجاله بقوله : « وأما أبو الوفاء فهو والله ما يقمده عن المؤانسة الطيبة ، والمساعدة المطربة ، والمفاكهة اللذيذة ، والمواتاة الشهية ، إلا أن لفظه خراساني ، وإشارته ناقصة . هذا مع ما استفاده بمقامه الطويل ببغداد ، والبغدادى إذا تحخرسن كان أعلى وأطرف من الخراساني إذا تبغدد »^(٤) .

وكان ابن سمدان يلقبه بشيخه^(٥) .

٢ — ومن هنا نعرف أن القنطلى أخطأ في قوله إن أبا حيان ألقه لأبي سليمان السجستاني المنطقي ، لأنه كان أعور وبه وَصَحْ ، فاقطع عن الناس ، ولزم منزله ، فلا يتردد عليه إلا طالب علم ومستفيد ، وكان يشتهى الاطلاع على أخبار الدولة ، فينقل إليه من ينشاء من الأجلاء بعض أخبارها .

وكان أبو حيان التوحيدى من بعض أصحابه المتصمين به ، وكان يغشى

(١) الإمتاع والمؤانسة ٣/١ — ١٠

(٢) ٩/١ (٣) ١٨٦/٢

(٤) الصداقة والصدى ٣٢ (٥) الإمتاع ١٩/١

محاضرات الرؤساء ، ويطلع على الأخبار ، فينقل إلى أبي سليمان ما يعلمه . ولأجله صنف كتاب الإمتاع والمؤانسة ، نقل له فيه ما كان يدور في مجلس أبي الفضل عبد الله بن العارض الشيرازي عندما تولى وزارة صمصام الدولة بن عضد الدولة

وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو : ابتداء أبو حيان كتابه صوفيا ، وتوسطه محدثنا ، وختمه سائلا ملحقا^(١) .

طريقته :

كان ابن سمدان يسأل أبا حيان ، فيجيبه .
وأحيانا كان ابن سمدان يتخذ من الجواب موضوعات لأسئلة أخرى ، يفرعها^(٢) .

وأحيانا يطرح عليه السؤال ويهمله إلى الغد ليحجب ، أو يمهله إلى أجل غير معلوم ، حتى يقرأ ويسأل ويباحث غيره ، ثم يجيب شفها أو كتابة .
ولقد يسمع منه بعض الجواب ، ويرجىء باقيه إلى أن يكتبه أبو حيان ويبيضه^(٣) .

ولقد يروقه الجواب فيطلب من أبي حيان أن يكتبه ليردد نظره فيه « لله در هذا النفس الطويل » . لقد كنت قَرِما إلى هذا النوع من الكلام « ففرع نفسك لرسمه في جزء ، لأنظر فيه ، وأشرب النفس حلاوته »^(٤) .

(١) تاريخ الحكماء للزوزني مختصر كتاب أخبار الحكماء للأفطى ٢٨٣

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢٤/١ - ٤٩، ٢٥ (٣) الإمتاع ٧٠/١

(٤) الإمتاع ٩٥/١

وكان يختم بمض الليالى بقوله : هات ملحة الوداع^(١) .
ولم يكن ابن سعدان يكتفى بالسمع ، بل كان أحيانا يملق برأيه ، ويناقش ،
ويُسَفِّد^(٢) .
وأبو حيان فى إجاباته يسند كل خبر أو رأى لصاحبه .
فقد نقل عن أرسطو عن كتابه (السماء والعالم) وسماء الحكيم^(٣) . ونقل
عن الأصمعي^(٤) . وعن على بن أبى طالب^(٥) . وعن عمر بن الخطاب^(٦) . وعن
إبراهيم السندى^(٧) . وعن إبراهيم بن الجنييد^(٨) . وعن الأعمش^(٩) . وعن أنس
ابن مالك^(١٠) . وعن مالك ابن عماره اللخمي^(١١) . وعن ابن السكبي^(١٢) . وعن
أبى سليمان المنطقي^(١٣) . وعن أبى الحسن العامري^(١٤) .
واسند شهد بأحاديث كثيرة^(١٥) .

وعقب على الليلة السابعة عشره (عدد صفحاتها ٤٨ صفحة) بنقف شتى
(٢٤ صفحة) ذكر فيها طرفا وآراء للنبي صلى الله عليه وسلم وابن المقفع
وكسرى أبو شروان وأبى سليمان وعمر بن الخطاب ، وتكلم عن الدينة عند
العرب ، ومثل بشر ، وذكر كلاما لديوجين والإسكندر وسقراط وأنكساغوراس
وأفلاطون وسقراط وأبى زبد البلخي ومسكويه وأبقراط^(١٦) :

وبدأ الليلة الثامنة عشرة بمجون فيه إغاش ، نثرى وشمرى من محفوظه ،
وفيه فسكاهات لا إغاش فيها ، لكن لا يجمعها رابط موضوعى^(١٧) .

٨٧/٢ (٣)	٣٣ ، ٣٢ ، ٢٤/٢ (٢)	٧٠/١ الإمتاع (١)
٦٦/٢ (٦)	٦٣/٢ (٥)	٦٣/٢ (٤)
٦٩/٢ (٩)	٦٨/٢ (٨)	٦٦/٢ (٧)
٧٤/٢ (١٢)	٧٠/٢ (١١)	٦٩/٢ (١٠)
١٠٣ — ٩٢/٢ (١٥)	٨٤/٢ (١٤)	١٣٢ ، ٨٢/٢ (١٣)
	٥٠/٢ (١٧)	١٦ (١٦) الإمتاع والمؤاساة ٢/٢

وفي إحدى لياليه وصف الوزير برقة القلب ، وشدة التوقى ، وكثرة الصوم ،
لأنه دمع حينما سمع حديث الرسول عليه الصلاة والسلام « بدأ الإسلام غريبا
وسيمود غريبا كما بدأ غريبا ، فطوبى للأغرباء من أمتى » وسمع شرح الحديث .

ثم طالبه الوزير بجمع جزء من رد فق المبدأ وكلامهم اللطيف الحلو ، ومواظمتهم
الرادة ، ففعل ، وكتب ورقات في حديث النفس^(١) .
وعاد إلى مواظمتهم ثانيا^(٢) .

ومرة طلب منه الوزير ابن سعدان كلمات بوارع ، قصارا جوامع ، فكتب
إليه أشياء كان قد سمعها من أفواه أهل العلم والأدب ، على الأيام في السفر
والحضر^(٣) .

موضوعاته

ليس للكتاب موضوع واحد ينسبته في فكرة أو حول فسكرة ، وإنما
هو أفانين من المعرفة والثقافة ، لا يربطها رابط موضوعى . هو ضرب رفيع من
الحديث والسامرة ؛ لأنه إجابات عن أسئلة شتى ، كان يمدّها ابن سعدان في نفسه ،
أو كان يلقيها عفو الخاطر .

وهذه نماذج لردوس موضوعات منه :

لماذا يكون الغناء ألد وأطيب ، وأحلى وأعذب ، إذا ساند الغنى من آخر^(٤) ؟
كلام في وصف الغيلة وبعض الحيوانات ومواطنها وطبائعها^(٥) .
كلام في النبات والمعادن^(٦) .

الفرق بين الروح والنفس في رأى العرب^(٧) .

- | | |
|----------------------------|----------------------------|
| (١) الإمتاع والمؤانسة ٨٠/٢ | (٢) الإمتاع ١١٩/٢ — ١٣٠ |
| (٣) الإمتاع والمؤانسة ٦١/٢ | (٤) الإمتاع والمؤانسة ٨٢/٢ |
| (٥) ١٠٤/٢ | (٦) ١٠٧/٢ |
| | (٧) ١١٣/٢ |

الفرق بين النظم والنثر ، وأيهما أجمع للفائدة ، وأدخل في الصناعة ، وأولى بالبراعة ؟^(١) .

حقيقة الاتفاق والمصادفة^(٢) .

حقيقة اليُسْنُ والبركة والفأل والطيرة وأضدادها^(٣) .

طرب الذين سمعوا غناء ، وأسماء المغنين والمغنيات والشعر الذي تغنوا به^(٤) .

تفسير قوله تعالى : هو الأول والآخِر والظاهر والباطن^(٥) .

الفرق بين القُبص والقُبْض : هل يجمع الإل ؟ (بمعنى العهد) ما معنى آم الرجل ؟^(٦) كلمة سراويل تذكر أم تؤث ؟ وتصرف أم لا ؟^(٧) ما واحد الفاخيب والماخيب ؟^(٨) ما معنى امرأة عروب^(٩) . وغيرها من مسائل اللغة ؟

المفاسلة بين الحساب والبلاغة والإنشاء والتحرير ، وانتصاره للبلاغة على الحساب^(١٠) .

الأخلاق^(١١) .

الحيوان وغرائبه^(١٢) .

المناظرة بين أبي سعيد السيرافي ومتى بن بونس في المنطق البونائى والبيان والنحو العربى ، فى مجلس ابن الفرات^(١٣) . مؤلفو إخوان الصفا ، وكلام عن مذهبهم ورسائلهم^(١٤) أنواع الدواوين فى عصره^(١٥) .

١٦١/٢ (٣)	١٥٣/٢ (٢)	١٣٠/٢ (١)
١٩٣/٢ (٦)	١٩٠/٢ (٥)	١٨٣—١٦٥/٢ (٤)
١٩٧/٢ (٩)	١٩٧/٢ (٨)	١٩٦/٢ (٧)
١٥٧—١٤٣/١ (١١)		١٠٤—٩٦/١ (١٠)
١٢٨—١٠٨/١ (١٣)		١٩٧—١٥٩/١ (١٢)
٩٨/١ (١٥)		٤/٢ (١٤)

جهر أبي حبان في هذا الكتاب

أكثر جهده معتمد على الإدلاء بما يحفظه أو ينقله ، بمباراته هو في الغالب .
وأقل من هذا اعتماده على آرائه الخاصة .
فن اعتماده على محفوظه هذان المثالان :

(١) سأله الوزير أن يفرق بين النظم والنثر ، ويبين أيهما أجمع للفائدة وأدخل في الصناعة وأولى بالبراعة . فأجاب في تفضيل النثر إجابة نقلها عن شيخه أبي سليمان وأبي عابد السكرخي وعن عيسى الوزير وعن ابن طرارة وعن أحمد ابن محمد كاتب ركن الدولة وعن ابن هندو الكاتب وعن ابن كمب الأنصاري ، ونقل تفضيل الشعر عن السلاوي وابن نباتة والخاليع والأنصاري (١) .

ولم يدل برأى خاص في موضوع أدبي كهذا هو من اختصاصه .

(ب) قال له ابن سمدان : ما تحفظ في تفعّال وتفعّال ، فتمدّ اشتباها ؟ وفزعت إلى ابن عبّيد الكاتب فلم يكن عنده مقنع ، وألقيت على مسكويه فلم يكن له فيها مطلع ، وهذا دليل على دنور الأدب ، وبوار العلم ، والإعراض عن الكدح في طلبه .

قلت : قال شيخنا أبو سعيد السيرافي الإمام — نصر الله وجهه — :
المصادر كلها على تفعّال بفتح التاء . وإنما تجيء تفعّال في الأسماء ، وليس بالكثير . قال : وذكر بعض أهل اللغة منها ستة عشر إمّا لا يوجد غيرها .
قال : هاتها .

قلت : منها التّبيان والتّلقاء ، وتَمَسّاح ، وتَمثال الخ (٢) .

(١) الإمتاع والمؤاساة ٢/١٣٠

(٢) الإمتاع والمؤاساة ٢/٢

ومن آرائه الخاصة هذا المثال :

سأله ابن سمدان : أتفضل العرب على المعجم أم المعجم على العرب ؟
فأجاب بما نسبته إلى ابن المقفع في تفضيل العرب على الفرس والروم والصين
والهند والزيج .

لكن ابن سمدان طلب رأيه فأراد أن يتصل ، فضيق عليه ، فأجاب بأن
لكل أمة فضائل ورذائل ، وشرع بمدد فضائل الفرس والروم والهند والترك
والزيج والعرب ، على أنها ليست فضائل لكل فرد منها ، بل هي شائعة بينها ،
وفي كل أمة من هذه الأمم كثير لا يتحلون بها .

وقبته إلى فكرة لها قيمتها في الحكم على الأمم وهي أن لكل أمة من
الأمم زمنا تغلب فيه وتسمو ، كما كانت يونان أيام الإسكندر ، وفارس أيام كسرى
أنو شروان ، والأمة في زمان قوتها وسيطرتها تكون أفضل ، فإذا غلبها غيرها
صار هو الأفضل ... (١) لكنه عاد ففضل العرب على الفرس وعلى الهند ، ورد
على الشعوبية في قوة وتدفع وبراعة بيان (٢) .

نماذج من الإمتاع والمؤانسة

فقرات مهم اللبنة الثامنة

قال : صل حديثك عن هؤلاء بحديث أصحابنا الشعراء ، صف لي جماعتهم ،
واذكر لي بضاعتهم .

قلت : لست من الشعر والشعراء في شيء ، وأكره أن أخطو على دَحَضٍ — مزلة — وأحتسى غير محض .

قال : دع هذا القول ، فما خضنا في شيء إلى هذا الوقت إلا على غاية ما كان في النفس ، ونهاية ما أماد من الأنس . فكان من الوصف : أما السِّلَاحَى^(١) فهو حلو الكلام ، مُتَّسِقُ النظام ، كأنما يَنْسِمُ عن ثمر ألغام . خفي السرقة ، لطيف المأخذ ، واسع المذهب ، لطيف المنارس ، جميل الملبس ، لسكلامه كَيْنُطَةُ^(٢) بالقلب ، وعبث بالروح ، وبرَد على السكبد .

وأما الحاتمي^(٣) فغليظ اللفظ ، كثير البُعْد ، يحب أن يكون بدويًا مُتَّعًا وهو لم يَتَمَّ حضريًا ، غزير المحفوظ ، جامع بين النظم والنثر ، على تشابه بينهما في الجفوة ، وقلة السلاسة ، والبهمد من المسلوكة . بادى العورة فيما يقول ، لسكلامه يبرز ما يُخْفِي ، ويكدر ما يُصَفِّي . له سَكْرَةٌ في القول إذا أفاق منها مُخِرٌ^(٤) وإذا مُخِرَ سَدِرٌ^(٥) ، بتناول شاخصا في تضائل متقاعسا ، إذا صدق فهو مَوِينٌ ، وإذا كَدَب فهو مَشِينٌ .

وأما الخالع^(٦) فأديب الشعر ، صحيح النحت ، كثير البديع ، مستوى

(١) من أشعر أهل العراق ، عرق الأصل من بني غزوم . ولد بكرخ بئداد سنة ٣٣٦ واتصل بالصاحب ابن عباد وعضد الدولة البويهى ومدحهما . وروى صاحب اليتيمة من شعره . مات سنة ٣٩٤ هـ (٢) تعلق والتصاق

(٣) محمد بن الحسين الحاتمي ، مدح الخليفة القادر بالله ، وله الرسالة الحاتمية التي شرح فيها ماجرى بينه وبين التتبي . مات سنة ٣٨٨ هـ

(٤) أصيب بالجار وهو ألم في الرأس وصداع يعقبان السكر ، والكلام هنا على طريق الاستعارة

(٥) تخير أو لم يبال ما صنع ولم يهتم

(٦) أبو علي الحسن بن علي الخالع شاعر من شعراء الوزير أبي نصر سابور بن أردشير - له شعر في اليتيمة

الطريقة ، متشابه الصناعة ، بعيد من طفرة التخثير ، كان ذو الكفايتين يقدمه
جازي ، ويقبله على النشر والسطى .

وأما مسكويه^(١) فلطيف اللفظ ، رطب الأطراف ، رقيق الحواشي ، سهل
المأخذ ، قليل السكب ، بلىء السبك ، مشهور المعاني ، كثير التواني ، شديد
التوق ، ضعيف الترقى ، يردُّ أكثر مما يصنِّد ، ويتناول جهده ثم يقسُّ ،
ويطير بعيدا ويقع قريبا ، وله بعد ذلك مأخذ كشدو من الفلسفة ، وثأت
— تلطف — فى الخدمة ، وقيام برسوم الندامة — المنادمة على الشراب —
وسنة فى البخل ، وغرائب من الكذب ، وهو حائل العقل لشغفه بالكيمياء .

وأما ابن نباتة^(٢) فشاعر الوقت ، لا يدفع ما أقول إلا حاسدا أو جاهل
أو معاندا . قد لحق عصاة سيف الدولة ، وعدا معهم ووراءهم . حسن أخذو
على مثال سكان البادية ، لطيف الاتهام بهم ، خفى المناص فى واديههم ، ظاهر
الإطلال على ناديههم ، هذا مع تشعبة من الجنون وطائف من الوسواس^(٣) .

— ٣ —

(٤)
اللبنة السادسة عشرة

ثم هدت وقتا آخر فقال : كنت حكيت لى أن العاصرى صنف كتابا عنونه

(١) أبو على أحمد بن محمد مسكويه . كان متفلسفا مؤرخا . وكان قيا على خزائن كتب
ابن الميديم على خزائن كتب عضد الدولة . ثم اختص بهاء الدولة البويهى وعظم عنده .

حات ٤٢١ هـ

(٢) ابن نباتة السمدى . عبد العزيز بن محمد بن نباتة . من شعراء سيف الدولة ابن

جدعان . واتصل بابن الميديم وندحه . ولد سنة ٣٢٧ ومات سنة ٤٠٥ هـ

(٣) الإمتاع والمؤاساة ١٣٤/١ — ١٤٣

(٤) ٢٢٢/١ .

(بإنقاد البشر من الجبر والقدر) فكيف هذا الكتاب ؟ قلت : هذا الكتاب رأيته بخطه عند صديقنا وتلميذه أبى القاسم الكاتب ، ولم أقرأه على العامرى . ولكن سمعت أيا حاتم الرازى يقرؤه عليه ، وهو كقاب نفيس ، وطريقة الرجل قوية . ولكنه ما أعتقد البشر من الجبر والقدر ، لأن الجبر والقدر اقتسما جميع الباحثين عنهما والناظرين فيهما .

قال : لم قيل الجبر والقدر ، ولم يُقَلَّ الإيجاب ؟
فكان الجواب أن الإيجاب لغة قوم ، والجبر لغة تميم . يقال : جبر الله الخلق وأجبر الخلق . وجبر بمعنى جَبَل ، واللام تعاقب الراء كثيرا .
قال : فتسكلم فى هذا الباب بشىء يكون غير ما قاله العامرى ، وانقد له إن كان الحق فباذهب إليه ودل عليه .

فكان من الجواب : أن من لحظ الحوادث والكوائن والصوارد والأوائ من معدن الإلهيات أقر بالجبر ، وهرى نفسه من العقل والاختيار والتصرف ، والتصرف ، لأن هذه — وإن كانت ناشئة من ناحية البشر — فإن منشأها الأول إنما هو من الدواعى والبواعث والصوارف والموانع التى تنسب إلى الله الحق ، فهذا هذا .

فأما من نظر إلى هذه الأحداث والكائنات والاختيارات والإرادات من ناحية المباشرين الكاسيين الفاعلين المحدثين اللامين اللومين المكسفين ، فإنه يمسكها بهم ، ويلصقها برقابهم ، ويرى أن أحدا ما أتى إلا من قبل نفسه ، وبسوء اختياره ، وبشدة تفصيله ، وإشار شقائه .

والمحوظان صحيحان ، والملاحظان مصيبان . اسكن الاحتلاف لا يرتفع

بهذا القول والوصف ، لأنه ليس لكل أحد الوصول إلى هذه الغاية ، ولا لكل إنسان اطلاع إلى هذه النهاية .

فلما وقعت البينونة بين الناظرين بالطبع والنسبة لم يرتفع القال والقييل من ناحية القول والعصفة ، فهذا هذا .

قال — أطال الله بقاءه — فما الفرق بين القضاء والقدر ؟

فكان من الجواب أن أبا سليمان قال : إن القضاء مصدره من العلم السابق ، والقدر مؤثره بالأجزاء الحادثة .

فقال : لم ورد في الأثر : « لا تخوضوا في القدر فإنه سر الله الأكبر » ؟

فكان من الجواب : أن أبا سليمان قال لنا في هذه الأيام : إن الناموس ينطق بما هو استصلاح عام ، ليكون النفع به شائما في سكون النفس وطيب القلب وروح الصدر .

فإن كان هذا هكذا فقد وضع أن حكمة هذا السر طيئة ، لأن عجز الناظرين يُفسيخ بهم إلى الخيرة ، والخيرة مضلة ، والمضلة هلكة .

وإذا كانت الراحة في الجهل بالشيء ، كان التعب في العلم بالشيء ، وكم علم لو بدا لنا لكان فيه شقاء عيشنا . وكم جهل لو ارتفع منا لكان فيه هلاكنا . والعلم والجهل متسومان بيننا ، ومفوضان علينا على قدر احتمال كل واحد منا للذي سبق إليه وخلق به . ألا ترى أن علمنا لو أحاط بموتنا متى يكون ، وعلى أي حال تحدث العلة أو المحنة أو البلاء ، لكان ذلك مفسدة لنا ، ومحنة شديدة علينا ؟

فانظر كيف زوى الله الحكيم هذا العلم عنا ، وجعل الخيرة فيه لنا .

ألا ترى أيضا أن جهلنا لو غلب علينا في جميع أمورنا لكان فساد ذلك في عظم الفساد الأول ، والبلاء منه في معرض البلاء المتقدم ، فمن هذا الذي أشرف على هذا الغيب المكنون ، والسر المحزون ، فينهض عن الشكر الخالص ، والاستسلام الحسن ، والبراءة من كل حول وقوة ؟ فالاستمداد بمن له الخلق والأمر ، أعني الإبداع والتشكيل ، والإظهار والتشريف ، والتقدير والتصريف .

قال : هذا فن حسن ...

قال : إن الليل قد دنا من فجره ، فهات مُسلحه الوداع :
قلت : قال يعقوب صاحب (إصلاح المنطق) : دخل أعرابي الحمام ، فزلق ، فانشج^١ ، ما نشأ يقول :

وقالوا تطهر^٢ إنه يوم جمعة فرحت^٣ من الحمام غير مطهر^٤
ترددت^٥ منه شاربا شج^٦ مفترقا بفلسين^٧ إني بئس ما كان متجبري
وما بمجنس^٨ الأعراب في السوق مشية^٩

فكيف يبيت من رخام وممر؟
يقول لي الأنباط إذ أنا نازل « به لا بظي^{١٠} بالصريعة أعر^{١١} »
فقال — حرس الله نفسه — كنت أروى قافية هذا البيت (أعفرا) وهذه فائدة كنت عنها في ناحية .

(١) هذا مثل يضرب في العناية بالرجل . يريدون أن المكروه ينزل به ولا ينزل بظي
أعر ، كأنه من الحسة والهوان بحيث يفضل عليه الظلي الأعفر

فقرات من الليلة السابعة عشرة

قال مُحَذِّبَةُ : كن في الفتنة كابن اللّابون ، لا ظَهَرَ فيركب ، ولا لَبِنَ
خيحاب .

قال ديوجانس : إن المرأة تُسَلِّقُ الشر من المرأة ، كما أن الأفعى تأخذ السمَّ
من الأرضة .

وقال فيثاغورس : ان كثيرا من الداس يرون العمى الذى يَعرِضُ لعين
البدن فتأباه نفوسهم . فأما عمى عَيْنِ النفس فإنهم لا يرونه ولا تأباه نفوسهم ،
فلذلك لا يستحيون .

وقال أيضا : كما أن الذى يسلك طريقا لا يعرفه لا يدري إلى أى موضع يؤديه ،
كذلك الذى يسمع كلاما لا يعرف الغرض فيه لا يرجح منه إلا التبع .

قيل له : متى تطيب الدنيا ؟ قال : إذا تفلسف ملوكها ، ومَلَك فلاسفتها .

فقال الوزير — أسعده الله — عندى أن هذا الكلام مدخول ، لأن الفلسفة
لا تصح إلا لمن رفض الدنيا ، وفرغ نفسه للدار الآخرة ، فكيف يكون الملك رافضا
للدنيا ، وقائلا لها ، وهو محتاج إلى سياسة أهلها ، والقيام عليها باجتلاب مصالحها ،
ونفى أمفاسدها ، وله أولياء يحتاج إلى تدبيرهم ، وإقامة أبنيتهم ، والتوسعة عليهم ،
ومواكاتهم ومشاربتهم ومداراتهم والإشراف على سرهم وعلايتهم ؟ والملك أنعب

من الطبيب الذى يجمع معالجة كثيرة بضروب الأدوية المختلفة والأغذية المتباينة . هذا والطبيب فقير إلى تقديم النظر فى نفسه وبدنه ، ونفى الأمراض والأغراض عن ظاهره وباطنه . ومن كان هكذا ومن هو أكثر منه وأشد حاجة وعلامة كيف يستطيع أن يكون مسلكا وحكيما ؟ ولعل قائلا يظن هذا ممكنا أو يكون الملك واعيا فى الحسنة بالدعوى ، وقائما بالملك على طريق الأولى ، وهذا إلى التيات الأمر واختلاله واختلاطه فى الملك والفلسفة أقرب منه إلى إحكام الأصل وإثبات الفرع . ولهذا نجد نحن فى الإسلام من نظر فى أمر الأمة على الزهد والتقى وإينار البر والمهدى إلا عددا قليلا .

والجوس ترهم أن الشريعة مُمرّجة عن المثلك ، أى الذى يأتى بها ليس له أن يُمرّج على المثلك ، بل له أن يكمل الملك إلى من يقوم به على أحكام الدين . ولهذا قال ملكنا الفاضل : الدين والملك أخوان ، فالدين أس ، والمثلك حارس ، فما لا أس له فهو مهدوم ، وما لا حارس له فهو ضائع .

قلت له : هذا باب إن توزع القول فيه طال ، وإن رُمى بالقصد جاز ، ولأئمة كلام كثير فى الإمامة والخلافة ، وما يجرى مجرى النيابة عن صاحب الديانة على فنون مختلفة وجل متعددة . إلا أن الناظر فى أحوال الناس ينبئ أن يكون قائما بأحكام الشريعة ، حاملا للصغير والكبير ، على طرائقها المروفة ، لأن الشريعة سياسة الله فى الخلق ، والملك سياسة الناس للناس . على أن الشريعة متى خلت من السياسة كانت ناقصة ، والسياسة متى عريت من الشريعة كانت ناقصة . والمثلك مبعوث ، كما أن صاحب الدين مبعوث ، إلا أن أحسد البهتين

أخفى من الآخر، والثاني أشهر من الأول .
قال — أطل الله بقاءه — كنت أحب أن أعلم من أين قلت :
إن الملك مبعوث أيضا ؟ فإن هذه السكامة ما ثبتت في أذن قط ، ولا
خطرت لي على بال .
قلت : قال الله عز وجل في تنزيهه : « إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا »
فوجب وقال : كأنى لم أسمع بهذا قط ^(١) .

الصدقة والصدق

الحق أله :

ذكر في المقدمة أنه كان قد ذكر طرفاً من هذا الكتاب على مسمع زيد ابن رفاعه ، فنقله إلى ابن سعدان ، فطلب منه أن يدونه . وكان ذلك سنة ٣٧١ هـ قبل أن يتحمل أبو عبد الله ابن سعدان أعباء الدولة ، ويتولى الوزارة . لكن ابن سعدان شغل بالحكم والسياسة ، فنسى أن يذكر أبا حيان بكتابه هذا ، إلى أن عُزل وقُتل .

وبعد ذلك بسنتين ، كما يقول أبو حيان ، أو على التحديد سنة ٤٠٠ هـ كما يقول ياقوت (١) ، عثر على مسودة الكتاب فييئضه (٢) .

طريقته :

١ - ينبيء تصفح الرسالة عن نقل متصل متنوع ، من حكمة ، وشعر ، وفن ، وحديث ، وأخبار وأحداث .

ويظهر من الرسالة أن أبا حيان اعتمد أولاً على الجمع ، ثم على رأيه ، وحتى هو في جمعه لم ييوب ولم يرتب .

لهذا نعجب من قوله في المقدمة : « سمع مني في وقت بمدينة السلام كلام في الصدقة والعشرة ، والمؤاخاة والألفة ، وما يلحق بها من الرعاية والحفاظ والوفاء والمساعدة والنصيحة والبذل والمواساة ... »

وسئلت إثماته ، ففعلت . ووصات ذلك بجملة ما قال أهل الفضل والحكمة .
وأصحاب الديانة والرومة ، ليكون ذلك كله رسالة تامة ، يمكن أن يستفاد منها ،
وينتفع بها في المأش والمعاد ^(١) .

والذى يقرأ هذا النص يحسب أن أبا حيان له آراء خاصة كثيرة في الرسالة ،
بل يجبل إليه أن جهده الإنشائي فيها أكثر من نقله ، فإذا ما تصفح الرسالة وجد
أكثرها نقولا .

فكيف ذكر أبو حيان ذلك .

إما أن يكون غرضه من قوله « سمع منى كلام في الصداقة » أنه أسمع الناس
من محفوظه ، ثم زاد عليه من محفوظه أيضا حينما أثبت الرسالة .

وإما أن يكون قد كتب المقدمة بمد أن كتب الرسالة بتسمة وعشرين عاما ،
لأنه كتب الرسالة كما قال سنة ٣٧١ ثم عاد فبيضاها سنة ٤٠٠ كما ذكر ياقوت ،
أو بيمض سنين كما ذكر هو ، وربما كان هذا الزمن الطويل قد أنساه أنه اعتمد
على العقل أكثر ، وظن أن له في الرسالة جهداً أكبر .

وإن كنت أستبعد هذا الفرض ، لأنه إذا كان قد نسي ، فإنه يتذكر
حينما يبيض .

٢ - الموضوع العام واحد ، وليس أشتاتاً كما في الإمتاع والمؤانسة ، أو
المقاسبات ، أو الهوايل والشوامل .

لكن أبا حيان لم يدويه ، ولم يقسمه أى تقسيم ، وإنما حشد كل ما يتصل
بالصداقة والصديق حشداً لا تنظمه وحدة أو فكرة .

(١) الصداقة والصديق ١

٣ — وأحيانا يستقل برأيه ، كما فعل في تفسيره لمعنى (إذا عز أخاك فهُنْ) فقد ذكر التفسير الخاطيء ، وعقب عليه بتصحيح أحد الخالديين له ، وعلق هو على هذا التصحيح والتفسير ^(١) .

٤ — فرّق بين دلالات دقيقة ، كتفرقه بين الصداقة والملاقة ^(٢) .
وعلى لمائل عويصة ، كتعليقه لكثرة التنافس وشدة العداوة بين ذوى القربى أكثر مما بين الأبعد والأجانب ^(٣) .

وهو هنا يتأثر الجاحظ في رسالة الحاسد والحسود مع بعض فروق .
وكتعليقه لحنين الإنسان إلى والده ووالدته وأخته وابن عمه وبنت عمه وعشيقة وسديقه ، وإيثار الصديق على هؤلاء جميعا ^(٤) .

٥ — أكثر من الاستشهاد بالشعر القديم والمولود ، منسوبا إلى قائله في الأهم الأكثر . فلا تخلو صفحة من أبيات .
وأحيانا تتوالى صفحات كلها شعر ^(٥) .

وكثيرا ما يستشهد بشعر مشهور فلا يسمى قائله ^(٦) .

٦ — نقل حكما كثيرة عن اليونان مثل ديوجانوس وثيئانوس وانكساغوراس وأفلاطون وأرسطو وسقراط ^(٧) .

٧ — روى عن كثير من العلماء والأدباء ، من عرب وفرس ، ومسلمين ونصارى .

٢٣ (١)	٤٤ (٢)	٥٩ (٣)
٦٧ (٤)	٦٠ — ٦٢ ، ٨١ — ٨٥ (٥)	
٥٣ ، ٥٧ (٦)	٦٣ ، ٧٨ (٧)	٩٩ ، ٩٥ ، ١٠٣

من الذين نقل عنهم : الجاحظ ^(١) وابن المقفع ^(٢) وابن المعتز ^(٣) وسهل
ابن هارون ^(٤) ومحمد بن عبد الملك الزيات ^(٥) وأبي سعيد السيرافي ^(٦) .

ومنهم : أبو الحسن علي بن عيسى ^(٧) والطبراني ^(٨) وأبو عثمان أحد الخالدين ^(٩)
والقاضي أبو حامد ^(١٠) والأندلسي ^(١١) والعروضي ^(١٢) وأبو سليمان ^(١٣) وأبو
السائب القاضي ^(١٤) وعلي بن القاسم السكاكبي ^(١٥) وأحمد بن محمد السكاكبي ^(١٦)
والمرزباني ^(١٧) وابن مانويه القمي ^(١٨) وجعفر بن حنظلة ^(١٩) وابن الجمل السكاكبي
الاصرائي ^(٢٠) والهاشمي أبو علي ^(٢١) والبنوي ^(٢٢) وأبو عامر النجدي ^(٢٣)
وأبو حامد العلوي ^(٢٤) . ويذكر أحاديث عدة عن الرسول ﷺ .

٨ — يظهر أن أبا حيان لم يكن قد قدّر للرسالة أن تطول إلى هذا الحد ،
لأنه كان قد اعتزم على إنهاؤها .

ذلك أنه أشار إلى أن الرسالة توشك أن تنتهي ، وأنه سيختمها ببعض
الدواوير والآيات ، لأنها إذا طالأت أبغضت ، وإذا أبغضت هجرت ^(٢٥) .

لكنه لم يختمها إلا بعد ١١٩ صفحة من هذا الوعد . ^(٢٦)

٧٠ (٣)	١٩ ، ١٧ (٢)	١١ (١)
٨ (٦)	٧٣ (٥)	٧٣ (٤)
٢٣ (٩)	١٣ (٨)	٢٩ ، ١١ (٧)
٤١ (١٢)	٣٧ (١١)	٣٧ (١٠)
٧٤ (١٥)	٧٥ ، ٤٦ (١٤)	٥٩ ، ٤٣ (١٣)
٨٥ (١٨)	٧٦ (١٧)	٤٩ (١٦)
٦٥ (٢١)	٦٤ (٢٠)	١٢٣ (١٩)
٦٧ (٢٤)	٦٥ (٢٣)	٦٥ (٢٢)
	٢٦ (٢٦) ختمها في صفحة ١٩٩	٨٠ (٢٥)

فهل اجتذبه المقال إلى الاستمرار ؟
أو أن هذا القدر الكبير قد كان من إضافته حينما بيض الرسالة فيما بعد ؟
لعل الاحتمال الثانى هو الصواب ، لأننا عرفنا من حديثه أنه أهمل الرسالة
مدة طويلة ، ثم بيضها .

فبعضها :

للرسالة عدة قيم :

١ — جمعت ألوانا شتى من الحكم المتصلة بالصدقة والوفاء والندر والخلاف ،
من شعر ونثر . بعضه منسوب إلى قائله وبعضه غفل ، وبعضه عربى وبعضه غير
عربى مما ترجم .

٢ — ألبس أبو حيان بعض المعاني التى سمعها أسلوبه الخاص ، وبهذا يعد
بعضها صالحا لاستنباط خصائصه الأسلوبية .

٣ — فى الرسالة نصوص شعرية رندية ندر أن توجد فى غيرها ، كالرسائل
القصار المتبادلة بين الأصدقاء . لهذا تعد ذخيرة حفظت بعض الشعر والرسائل
من الضياع .

٤ — وفيها تفريق دقيق بين بعض الكلمات التى يوهم استعمالها أنها مترادفة .

نماذج من الصداقة والصدق

- ١ -

سمعت أحمد بن محمد الكاتب يحكي : قال المتنبّي : لا أحب رجلاً نقل إلى
ماكرهتُ عن صديق فغيرتني له ، ولا عن عدو فغلبني على طلب الانتصار منه ،
ومع ذلك فلم يستحي بأن واجهني بما ساء في سماعه .
أما قوله :

قد كنت أبكي على ما فات من سلفي وأهل ودي جميعاً غيرُ أُنثت
فاليوم إذ فرمت ببني وبينهم نوى بكيت على أهل الودّات
فليس مما نحن فيه ، لأن الكلام في الصداقة على كرم الهدى ، وبذل المال ،
وتقديم الوفاء ، وحفظ الذمّام ، وإخلاص المودة ، ورعاية الغيب ، وتوفر الشهادة ،
ورفض الموحدة ، وكفّام النيطد ، واستعمال الحلم ، ومجانبة الخلاف ، واحتمال
السكر ، وبذل الممونة ، وحمل المثونة ، وطلاقة الوجه ، ولطف اللسان ، وحسن
الاستئمانية ، والاثبات على الثقة ، والصبر على الضراء ، والمشاركة في البأساء ،
والملاقة وإن كانت تستعير من هذه الأبواب شيئاً ، فليس ذلك لأنه من عتادها
وأساسها ، ولا بما لا تتم إلا به ، ولكن من أجل التحسن والتزين .

وهذا الذي قاله هذا الشيخ كلام قصيد قريب سليم مقبول ، ولنا نتمقبه
بنقص ، ولا نمدح فيه باعتراض ، لأن الماشق والممشوق ليسا من الصدوق والصدق
وإن كانوا يتشابهون ببعض الأخلاق ، ويتلاقون في بعض الأحوال ، فليكن
هذا الرسم كائناً محفوظاً ، فإن المناظرة قد تقع في هذا كثيراً ، والإنصاف يقوم
عليه دائماً (١) .

قلت لابن الأثيرى : من الصديق ؟ قال : من سَلَّم سره لك ، وزَيَّن ظاهره بك ، وبذل ذات يده عند حاجتك ، وعف عن ذات يدك عند حاجته .
يراك منصفاً وإن كنتَ جاثراً ، ومُفَضِّلاً وإن كنتَ ممانعاً . رضاه منوط برضاك ، وهواه محوط بهواك . إن ضللت هواك ، وإن ظلمت أرواك ، وإن هجرت آذاك (أعانك وتواك) . يبين عنك بالجسم والرسم ، ويشاركك فى القسَم والوَسَم .

قلت : أما الوصف فحسن ، وأما الموصوف فعزيز .

فقال : إنما عزَّ هذا فى زمانك ، حين خبثت الأهراق ، وفسدت الأخلاق ، واستعمل النفاق فى الوفاق ، وخيف الهلاك فى الفراق . والله لقد شاهدت لشيخنا ابن طاهر أسدقاء ينطوون له على مودة أذى من الورد والعنبر ، إذا لحظهم بطرفه تهللوا ، وإذا لافلهم بلفظه تدللوا ، وإذا تحكَّم عليهم تمجَّلوا ، وإذا أمسك عنهم نولوا وخولوا .

وكانوا يجدون به مالا يجدون بأهلهم وأولادهم . رحمة الله عليهم ، فقد كانوا زينة الأرض ، فى كل حال من الشدة والخفص ، وإنى لأذكركم فأجد فى رُوحى رَوْحاً من حديثهم» (١)

قال سفیان بن عینیة : صحبت الناس خمسين سنة ، ماسترلى أحد عورة ،
ولا ردّ عنی مہیبة ، ولا عقال من مظلمة ، ولا قطمته فوصلنی . وأخصّ إخوانی
لو خالفتہ فی رؤسائے ، فقلت ہى حاضنة وقال ہى حلوة ، لسمی بى حتى
یشیط بدمی .

وقال أعرابی فی صاحب له : فلان أفصح خلق الله كلاما إذا حدث ،
وأحسنهم استمعا إذا تحدث ، وأكفهم عن الملاحاة إذا خولف ، يعطى
صديقه النائلة ، ولا يسأله الفريضة ، له نفس عن العوراء محصورة ، وعلى الممالى
مقصورة ، كالذهب الإبريز الذى يعز كل أوان ، والشمس التى لا تخفى بكل
مكان ، هو النجم المضى ، للجيران ، والبارد المذب للمطشان .

كتب أبو الدرداء إلى سلمان الفارسی يدعوہ إلى الأرض المقدسة ، فكتب
إليه سلمان : إن بعدت الدار من الدار ، فإن الروح مع الروح قريب ، وطائر السماء
على إلفه من الأرض يقع .

قال معبد بن مسلم :

جزى الله الموالى عن أخيم	وكل صحابة لهم جزاء
بما فعلوه إن خيرا نجيها	وإن شرا كما امتثل الخداء
فما أنصفهم والنصف يرضى	به الإسلام والرحم البواء
لردتهم النصيحة من لدنى	فجئوا النصيح ثم كمنوا فقاء
وقلت : فدنى لكم عى وخالى	فما قبل التودد والفاء

فكيف بهم وإن أحسنتم قالوا أسأت وإن غفرت لهم أساءوا
قال لنا المرزباني : حدثنا القراطيسي ، قال : أنبأنا أبو العيناء ، قال :
نشدنا السدري :

وإني لأهوى ثم لا أتبع الهوى وأكرم خلاني على صدود
وفي الناس عن بعض التضرع غلظة وفي العيون عن بعض البكاء جود
قال أبو العيناء : قلت لأعرابي : كيف أنت ؟ قال : كما يسرك إن كنت
صديقا ، وكما يسوءك إن كنت عدوا .
وكتب ابن ثوابة إلى صديق له : ما انفككت عن ودك ، ولا انفركت
عن عهدك .

قال شاعر :

إذا كثرت التجنى من خليل بلا ذنب فقد ملّ الخليل
كتب الحسن بن وهب إلى صديق له ، يعلمه صباته إليه ، ووحشته لفراقه ،
فقال : وقد قسمك الله بين طرفي وقلبي ، ففي مشهدك أنس قلبي ، وفي عينيك
لهو طرفي .

فأجابه الصديق : وقفت على الفضل الذي أخبرت فيه بما أخبرت ، فسيان
عليك رأيي أم لم ترني ، إذا كان بمضك بئس بمضنا ، فتسلو عني . ولكني أراك
فيخشع قلبي ، وأغيب عنك فتدمع عيني ، فسيان بين من سلا أبده ، ومن
حزين أمده (١) .

مثالب الوزيرين^(*)

أسلفت في صلة أبي حيان بابن العميد وابن عباد أنه لم ينل منهما ما كان يتأمل ، فهجأهما في هذا الكتاب .

وبينت أن ابن العميد المقصود هو أبو الفتح ابن أبي الفضل ابن العميد ، وليس أبا الفضل المعروف بالأستاذ وبالرئيس وبذي الرياستين هو المقصود .
وهرفت فيما سبق بأبي الفتح ابن العميد وبالصاحب بن عباد .

موضوع الكتاب :

١ — يتبين من القدر الذي نقله ياقوت من الكتاب — وهو غير قليل — أن القسم الخاص بالصاحب أكبر من القسم الخاص بابن العميد ، وأن الحنق على الصاحب أشد من السخط على أبي الفتح .
ولا عجب في هذا ، فإننا لم نعرف الزمن الذي قصاه عند أبي الفتح ، ولم نعلم مقدار أمله فيه ، ولذع حرمانه منه .

لكننا عرفنا منه أنه قضى زمنا أطول عند ابن عباد ، وأنه خدمه ، وأمل فيه أملا عظيما ، غير أن أمله كان هباء ، فعاد من عنده حاقا أشد الحنق ، لا يستطاع أن يكتم شيئا من حنقه في نفسه .

قال أبو حيان :

(*) (يسميه ياقوت بذلك ، ويسميه أخلاق الوزيرين ويسميه ثلث الوزيرين وكتاب الوزيرين ، وسماه مرة كتاب الهفوات لابن الصائغ (يريد ابن عباد) معجم الأدياء ١٥)

ما ذنبى أن ذكرت عنه ما جرت عنيه من مرارة الخيبة بعد الأمل ، وحلمى عليه من الإخفاق بعد الطمع ، مع الخدمة الطويلة ، والوعد المتصل ، والظن الحسن . حتى كأنى خصيصة بخساسته وحدى ، أو وجب أن أعامل به دون غيرى^(١) .

٢ — وهو فى تداوله للمصاحب يمثل خينا ، وبتوسط خينا ، ويسف حينئذ فمن اعتداله قوله :

كان ابن عباد شديد الحسد لمن أحسن القول ، وأجاد اللفظ . وكان الصواب غالباً عليه . وله رفقٌ فى سرِّ حديث ، ونية (تحسين ، وتوضيح) فى رواية ، وله شمائل مخلوطة بالدناءة بين الإشارة والمباراة . وهذا شئ عام فى البغداديين ، وكالخاص فى غيرهم^(٢) .

ومنه قوله :

« حضرت مائدة المصاحب بن عباد ، فقد كنت مضيرة^(٣) ، فأمنت فيها ، فقال لى : يا أبا حيان ، إنها تضر بالشايخ . فقلت : إن رأى المصاحب أن يدع التطيب على طعامه فمَلَّ . فكأنى أقمته حَجَرًا ، وخجل واستحيا ، ولم ينطق إلى أن فرغنا^(٤) . »

وكذلك قوله :

« طلع ابن عباد على يوم فى داره وأنا قاعد فى كثير إبان أكتب شيئاً :

(١) معجم الأدباء ٣٣/١٥

(٢) معجم الأدباء ٤٤/١٥

(٣) المضيرة : مرفقة باللبن المضير (الحامض) أو الحليب

(٤) معجم الأدباء ٧/١٥

قد كان كأدنى (كافئ) به ، فلما أبصرته قتل قائما ، فصاح بحلق مشقوق :
اقعد ، فالوراقون انفس من أن يقسموا لنا . فهمت بكلام ، فقال لي
الزعفراني الشاعر : اسكت فالرجل رقيق . فغلب على الضحك ، واستحال
الغيظ تمجبا من خفته وسخفه ، لأنه كان قد قال هذا وقد لوى شدقه ،
وكشع أنفه ، وأمال عنقه ، وإعترض في انتصابه ، وانتصب في اعتراضه ،
وخرج في تفككت مجنون قد أفلت من ديز مجنون . والوصف لا يأتي على
كسنة هذه الحال ، لأن حقايقها لا تدرك إلا باللفظ ، ولا يؤتى عليها باللفظ ،
فهذا كله من شمائل الرؤساء ، وكلام الكبراء ، وسيرة أهل العقل والزناة ،
لا والله ، وترابا (خسرانا) لمن يقول غير هذا^(١) .

٣ — ومن توسطه قوله :

كان المصاحب كثير المحفوظ ، جاضر الجواب ، فصيح اللسان ، وقد
تدب من كل أدب شيئا ، وأخذ من كل فن طرفا . والغالب عليه كلام
المسكمين والمعتزلة . وكتابته مهجبة بطرائقهم ومناظرتهم ، مشوبة بمباراة
الكتاب .

وهو شديد التعصب على أهل الحكمة ، والناظرين في أجزائها ، كالمهندسة
والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد . وليس له من الجزء الإلهي خبر ،
ولا له فيه عين ولا أثر .

وهو حسن القيام بالأمور والقوافي ، ويقول الشعر ، وليس بزال^(٢) .
وبديته غزارة ، وأما رويته فخوارة . ولا يرجع إلى التأله والرقعة والرأفة

(١) معجم الأدباء ٢٦/١٥

(٢) ليس منصرفا عن الصوب

والرحمة ، والناس كلهم يحجمون عنه ، لجراته وسلطاته ، واقتداره وبطشته ،
شديد العقاب ، لطيف الثواب ، طويل العتاب ، بذى اللسان ، سريع
الغضب ، بميد الفَيْثَة — الرجوع عن غضبه — قريب الطيرة ، حسود
حقوق . . .

وقد قتل خلقا ، وأهلك ناسا . . . ومع هذا يخدمه الصبي ، ويخيلبه الغني ،
لأن المدخل عليه واسع ، والمأني إليه سهل ^(١) .

٤ — ومن إسفاهه قوله :

« ثم نظر إلى غلام قد بقل وجهه ^(٢) — كان يهتم به على الوجه الأفيج —
فالتوى وتقلقل ، وقال : ادن منى يا بني ، كيف كنت ؟ ولم حملت نفسك على
هذا العناء ؟ وجهك هذا الحسن لا يُتَبَدَّل للشحوب ، ولا يُمرَضُ للافحات
الشمس بين الطلوع إلى الغروب . أنت تحب أن تكون بَدَلَة ^(٣) بين
كَجَجَلَة ^(٤) وِكَلَّة ^(٥) ، تراح بك العلة ، وتُنَلَّى بك القِلَّة ^(٦) ، وتُسْتَفَى منك
الفلة ^(٧) . »

ولكننا نستبعد هذا كله ، لأن أبا حيان ادعاه في الأحاديث التي استقبل بها
ابن عباد الناس الذين خفّوا للاقائه لما رجع من همدان سنة ٣٦٩ ، وفيهم القاضي
أبو الحسن الهمداني والزعفراني رئيس أصحاب الرأي وابن القطان القزويني

(١) معجم الأدباء ١٧٤/٦

(٢) ثبت شعر لحيته

(٣) البدة : مجموعة متناسبة ، وأكثر استعمالها في اللبوس

(٤) قبة وموضع يزين بالثياب ، وحجرة العروس

(٥) السر الرقيق (٦) الغنى القليل

(٧) معجم الأدباء ١٩٨/٦

الحنفى المصالح الظريف وأبو طالب الملوى الشريف وأبو خراسان الفقيه الشافعى^(١) ، وهؤلاء ذكروهم أبو حيان نفسه فى المستنبلين ، فكيف يجهر بأمامهم ابن عباد بما زعمه أبو حيان ؟

وحكى عن ابن عباد حكايات ، وأسندها إلى من أخبره بها .

ثم قال : فما ذنبى — أكرمك الله — إذا سألت عنه مشايخ الوقت وأعلام العصر ، فوصفوه بما جئت لك فى هذا المكان . على أنى قد سترتُ شيئاً كثيراً من غنايه ، إما هرباً من الإطالة ، أو صيانة للقلم عن رسم القواحش وبث الفضائح ، وذِكْر ما يَسْتُمِج مَسْمُوعُهُ ، وبُكْره التحدث به ..

هذا سوى ما فاتنى من حديثه ، فإنى قد فارقتُه سنة سبعين وثلاثمائة^(٢) .

٥ — أما ابن العميد فقد سلم من تجريجه وإسفافه إلى الحد الذى أسفّ فيه بابن عباد ، لأننا لانجد شيئاً من هذا فيما نقله ياقوت . وربما كان فى المفقود شيء منه .

فمن ثلبه لابن العميد أنه اتهمه بالبخل فى قوله : قصدت مع أبى زيد المروّزى دار أبى الفتح ذى الكفايتين ، ففنعنا من الدخول عليه أشد منع ، وذكر حاجبه أنه يأكل الخبز ، فرجعنا بعد أن قال أبو زيد للحاجب : أجلسنا فى الداهليز إلى أن يفرغ من الأكل ، فلم يعمل .

فلما انصرفنا خزايا أنشأ يقول متمثلاً :

هلى خبز إسماعيل واقيةً البخل فقد حل فى دار الأمان من الأكل

(١) معجم الأدياء ١٨٧/٦ — ١٩٨

(٢) معجم الأدياء ٣٣/١٥

وما خبزه إلا كآوى^(١) يُرى ابنه
 ولم يُرَ آوى في الحزون ولا السهل
 وما خبزه إلا كمنقاء مُنْزِبِ
 تُصَوِّرُ في بُسْط الملوك وفي المُثل
 يُحَدِّثُ عنها الناسُ من غير رؤية
 سوى صورة ما إن يَمُرُّ^(٢) ولا يُحْيِي^(٣)
 ولكنه ذكر في الكتاب ما ينبيء عن كرم ابن العميد وسخائه ، وإن كان
 السخاء على غير أبي حيان .
 من ذلك قوله :

جرى بيني وبين أبي علي مسكويه شيء . قال لي مرة : أما ترى إلى خطأ
 صاحبنا — يعني ابن العميد — في إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة ؟ لقد
 أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق .
 فقلت — بعدما أطال الحديث وتقطع بالأسف — : أيها الشيخ ، أسألك
 عن شيء واحد ، فاصدق فإنه لا مدب للكذب بيني وبينك ، لو غلط
 صاحبك فيك بهذا العطاء وأضاعه ، أكنفت تخيله في نفسك خطأ ومهذرا
 ومفسدا أو جاهلا بحق المال ؟ أو كنفت تقول : ما أحسن ما فعل ، وليته
 أرني عليه ؟

(١) سمي ابن آوى بهذه السكنية من غير وجود لآوى . فإذا أردت التمثيل للمحال
 قلت رأيت آوى أو عنقاء مغرب
 (٢) يقال للرجل وللشيء الذي لا قيمة له إنه لا يمر ولا يمر أي لا مرارة فيه فتخص ولا
 سلاوة فتذال (٣) معجم الأدباء ٩/١٥

فإن كان الذى تسمع على حقيقة ، فاعلم أن الذى يَرِدُ وَزِدَ مقالك إنمّا هو الحسد ، أو شيء آخر من جنسه ، وأنت تدعى الحكمة ، وتتكلف الأخلاق ، وتزيّف الزائف ، وتختار منها المختار ، فافطن لأمرك ، واطلع على شرك وشرك^(١) .

وقوله :

ودخل — أبو الفتح بن العميد — بغداد فتكلف ، واحتفل ، وعقد مجالس مختلفة للفقهاء يوما ، ولالأدباء يوما ، وللمتكلمين يوما ، وللمتفلسين يوما . وفرق أموالا خطيرة ، وتفقد أبا سعيد السيراق وعلي بن عيسى الرماثي وغيرهما ، وعرض عليهما المسير معه إلى الرى ، ووعدهم ومناهم ، وأظهر البهاة بهم . وكذلك خاطب أبا الحسن ابن كعب الأنصارى وأبا سليمان السجستانى المنطقى وابن البقال الشاعر وابن الأعرج النمرى وغيرهم .

ودخل شهر رمضان فاحتشد وبالغ ووصل وذهب ، فجرت فى هذه المجالس غرائب العلم ، وبدائع الحكمة ، وخاصة ماجرى مع أبى الحسن المامرى . ولولا طول الرسالة لرسمت ذلك كله فى هذا الكتاب ... إلى أن يقول : وسمعت أبا إسحاق يقول : هو ابن أبيه لله دره ، وأخذ فى تمظيم أبيه^(١) .

٧ — ولعلنا أدنى إلى الصواب فى استنباطنا أن الكتاب ليس كله هجاء كما يفهم من اسمه . ففيه هجاء وفيه وصف لأحوال الوزيرين ، وأخلاقهما ، وكفائتهما ، مع التحامل عليهما ، والجنوح إلى الغرض من شأنهما ، وخاصة مع ابن عباد .

(١) مجمع الأدباء ٥١/١٥

(٢) مجمع الأدباء ٢١٣/١٤ — ٢١٥

والذى يهد لنا هذا الرأى أننا نجد فى البقايا التى نقلها يا قوت ذما ومدحا ،
جولنا وقدحا .

كقوله :

كان عباد يُلقَّب الأمين ، وكان دِيننا خيرا ، مُقَدِّما فى صناعة
الكتابة . وكتب الأمين لركن الدولة كما كتب العميد لصاحب خراسان .
والأمين كان ينصر مذهب الأشنانى تَدِيننا ، وطلبا للزلفى عند ربه ، والعميد
كان يعمل لماجلته .

وإن قلتُ : كان الأمين معلما بقرية من قرى طالقان الذَّيلم قيل : وكان
والد العميد نَحالا فى سوق الحنطة بِقسم^(١) .

ومثل قوله عند ما قارب الفراغ من كتابه هذا : ولولا أن هذين الرجلين
— أعنى ابن عباد وابن العميد — كانا كبيرى زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور ،
وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما ازدادت الدنيا ، وكانا بحيث يُنَشِّرُ الحسنُ
منهما نشرًا ، والقبيحُ يُؤَثِّرُ فنيهما أثرا ، لسكنت لا أنسكح فى حديثهما هذا
التسكح ، ولا أنحى عليهما بهذا الحد .

ولكن النقص ممن يدعى التمام أشنع ، والحرمان من السيد المأمول فاقرة
— داهية — والجهل من العالم مبكر ، والكبيرة ممن يدعى العصمة جائحة
— شدة وبلى — والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب .

ولو أردتَ — مع هذا كله — أن تجد لها ثالثا فى جميع من كتب للجيل
والدلم ، إلى وقتك هذا المؤرِّخ فى السكتاب ، لم تجد^(٢) .

(١) معجم الأدباء ١٧٠/٦

(٢) معجم الأدباء ٢٣٢/١٥

البصائر والذخائر

معنى الاسم :

البصائر جمع بصيرة ، ومن معانيها فى اللغة : الفطنة ، والحجة ، والعبارة^(١)
وكل منها صالح هنا .

والذخائر جمع ذخيرة ، وهى ما ادّخر^(٢) .

فمعنى الكتاب إذاً : الفِيسَانُ أو الحجج أو العبر ، والذَّخْرُ
النافع المذَّخر .

موضوعه :

الكتاب ألوان شتى من المعرفة ، ليس له منهج موضوعى ، ولا محور خاص .
يدور حوله ، ففيه مسائل من اللغة والتصوف والنوادر والتاريخ والشعر والحكم
والمكاهة والمجون .

ذكر أنه يتضمن أمهات الحكم وكنوز الفوائد ، أولها وأجلها كتاب الله
عز وجل ، وثانيها سنة رسوله ﷺ ، وثالثها حجة العقل ، ورابعها رأى العين ،
هذا إلى أطراف من سياسة المعجم ، وفلسفة اليونان^(٣) .

أى أنه يعتمد فيما يثبت على كتاب الله ، وعلى سنة رسوله ، وعلى عقله ومنطقه
وتفكيره الخاص ، وعلى تجاربه ومشاهداته .

(١) أساس البلاغة والقاموس المحيط مادة بصر

(٢) القاموس مادة ذخر

(٣) البصائر والذخائر ٧-٩

طريقته :

١ — نثر المسائل نثرا ، لا يقتضيه ارتباط موضوعي ، ولا يستدعيه توارد الخواطر .

وقد أحس بذلك فقال : « إنما نثرت هذه القرائح على ما اتفق . وكان الرأي نظم كل شيء إلى شكله ، ورده إلى بابه ، ولكن منع منه ما أنا مدفوع إليه من التيات حالي وانباتات متني ، والتواء مقصدي ، وفقد ما به يُتمسك الرّمق ، وبصان الوجه ، لا عوجاج الدهر ، واضطراب الحبل ، وإدبار الدنيا بأهلها ، وقرب الساعة إلينا »^(١).

لهذا يشبه هذا الكتاب كتاب الصداقة والصديق ، في أن معناه كله متلاحق . متوال ، بغير عنوانات ولا ردوس موضوعات ، ولا إشارات إلى نهاية كلام في موضوع آخر .

٢ — أودعه ما سمعه ورواه في خمسة عشر عاما من سنة ٣٥٠ إلى ٣٦٥ هـ . « مع توشى القصار دون الطوال ، والسمين دون الغث ، والرفيع دون السفساف ، والبديع دون المعتاد »^(٢).

لكننا سنجد في الكتاب خشا وإسفافا وأدبا عاريا مكشوبا .

٣ — روى فيه عن علماء مختلفي النزعة .

فنقل عن علماء اللغة ، وعلماء الأدب ، وعن الفلاسفة ، والتصوف (رابعة

(١) البصائر والدخائر .

(٢) البصائر والدخائر .

«المدوية» يحيى بن معاذ الرازى الجنسئيد . البسطامى) وعلماء النحو ، والخطباء ،
والخلفاء .

٤ — وذكر أنه جمعه فى خمسة عشر عاما مما سمع وقرأ ، ومثل للكتب التى
قرأها ، فذكر كتب الجاحظ ، والنوادر لابن زياد الأعرابى ، والكامل لابن يزيد
الشمالى ، والعيون لابن قتيبة ، ومجالس ثعلب ، والأوراق للصولى ، والجوابات
لقدامة ، هذا إلى غيرها مما جمعه الناس ، وحفظ ما نطقوا به .

ووعده بنسبه كل قول إلى قائله ، ورد كل شيء إلى معدنه (١).

٥ — أورد حكما وأخبارا عن العرب ، وعن اليونان ، وكثيرا من ذكر
خلافتهم ، وذكر السكبيين والإسكندر .

٦ — كان كثير الاستطراد فى كتابه هذا . وهو فى استطراده لا يفعل
ما فعله الجاحظ من قبل ، فيأتى بمسألة أو نادرة للإيضاح وتجديد النشاط ،
كما أنه لا يتوخى الصلة بين الموضوع الأصيل والموضوع الطارىء .

وإن كان قد دافع عن استطراده بقوله : « وإنما أفليك من فن إلى فن ، لثلا
تمل الأدب ، فإنه ثقيل على من لم تسكن داعيته من نفسه » (٢).

على أنه كان فى استطراده اللغوى أكثر توفيقا .

وكثيرا ما يستطرد من النص إلى شرح بعض مفرداته ، ثم يستطرد من
المشروح إلى ما يتصل به اتصالا لغويا ، كقوله : العرب تقول فى أمثالها : « الحسن
أحمر » أى لا ينال النفيس إلا بشق النفس ، كأنه لا ينال إلا بالقتال وسفك الدم .

مبم الدم خفيفة ، وباء الأب خفيفة ، فتوقّ لحن العامة وأشباه العامة
من الخاصة ، ورَضْ لسانك على الصواب (١).

داء عُضال أى صعب ، وعُقام أيضا ، وهو الذى قد أعيا .
قالت ليلي الأحيلية :

إذا هبط الحجاج أرضا مريضة تتبعم أقعصى دأها فشفها
شفها من الداء العُضال الذى بها غلامٌ إذا هزّ القناة سقها

ويقال : ما أبين الضَّلالة فى جملك ، أى ما أبين الشدة .

وَضَلَّع فلان مع فلان أى مَيَّلَهُ . وفى الخلقة مَيَّلٌ يَهْدِي ياهذا بحركة الياء ...
ويقال لتجدنه مُطَّيَّما لذلك الأمر ، أى غالبا له ، ومضططاما لذلك أيضا (٢) .
أشير على الإسكندر بالبيات فى بمض الحروب ، فقال : لبس من آيين الملوك
إستراق الظنفر .

آيين لفظ فارسى يراد به السيرة والصورة والرى والرسم ، وما تعرفه
العرب (٣) .

أما استطراده فى غير اللغة فكان مبهتسرا غريب الطريقة ، لا هدف له غير
تسجيل الطرائف وجمع الحقائق .

فبينما يورد نصوصا فى التزهيد إذا به يزج بينها فسكاها بين حجاج وحذاء (٤)
لا صلة لها بما قبلها ولا بما بعدها ، ثم يورد بين نصوص أخرى فى التزهيد خرافة
عن علانة الحذب بالتربزة الجنسية لا صلة لها بما سبقها أو لحقها (٥) .

(١) الصائر والذخائر ٥٤ (٢) ٨٠

(٣) ٨٧ (٤) ١٥

(٥) ١٦

٧ - وفي هذا الكتاب تحرر من الجد والوقار أكثر مما في كتبه الأخرى.

ففيه حكايات ما جنة ، كالحكاية التي بين الفرزدق ورجل (١) ، ومارواه .
من كاتب كان بمشقة امرأة يهودية (٢) ، ومارواه عن ما كالتركي وجاريتيه (٣) ،
وبعض نوادر أخرى (٤) .

وإن كان هذا القدر قليلا في الكتاب .

وقد علل لهذا المسلك بأنه تنشيط وترغيب ودفع للسأم ، في قوله :

إياك أن تعاف سماع هذه الأشياء المضروبة بالهزل ، الجارية على السخف ،
فإنك لو أضرت عنها جملة لنقص فهمك ، وتبطل طبعك ...

فاجعل الاسترسال بها ذريعة إحصائك (إبناصك) والانبساط فيها مسلما
إلى جدك ، فإنك متى لم تُنذِر نفسك فرح الهزل كبر بها غم الجد ، وقد طبعَتْ
في أصل تركيبها على الترجيح بين الأمور المتفاوتة ، فلا تحمل في شيء من الأشياء
عليها ، فتكون في ذلك مسيئا إليها (٥) .

نماذج من البصائر والنخائر

- ١ -

قال حماد : كان لإسحاق أبي غلام يسقى الماء لمن في داره ، على بقاين ،
فانصرف أبي يوما ، فرآه يسوق البغل ، وقد قرب من الخوض الذي يصب فيه

(٢) ٩٠

(٤) ٢٣٩

(١) البصائر والنخائر ٤٩

(٣) ٩١

(٥) ٥٠

(م - ٦ أبو حيان ج ٢)

الماء . فقال : ما خبرك يا فتى ؟ قال : خبرى يا مولاي أنه ليس فى الدار أشقى منى ومنك . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأبك تطعمهم الخبز ، وأنا أسقيهم الماء . فضحك منه ، وقال له : فما تحب أن أصنع بك ؟ قال : تعفنى وتسببلى هذين البغليين . ففعل ذلك .

قبل للنظام : أتداظر أبا الهذيل ؟ قال : نعم ، وأطرح له رُخاً من عقى . قال المتوكل لـ محمد بن عبد الله بن طاهر : أُنجاني ؟ قال : أنا إلى مواصلة أمير المؤمنين أقرب .

قال على بن مُبَشَّدة : قلت أبيتا من الشعر ، ووجهت بهما إلى إسحاق الموصلى ، وقلت لهما عارية فاكسهما ، فغنى بها .

قال صر بن الخطاب — رضى الله عنه — لأبى ذرٍّ : من أخصبُ الناس ؟ قال : رجل بين أطباق الثرى ، أمِنَ العقاب ، وهو يتوقع الثواب . فقال صر : لو كنت أعددتَ هذا الكلام منذ حول لما زاد على هذا .

أم رجل حاملا فقال : لا تضبط حاشيته ، فكيف تضبط قاصيته ؟ وُلَّى عمر بن عبد العزيز — رحمه الله — فدعا إياس بن معاوية ، فقال له : دُلِّنى على قوم من القراء أو لهم . فقال له : إن القراء ضربان : فضرب يعملون للآخرة ، فأولئك لا يعملون لك . وضرب يعملون للدنيا ، فما ظنك بهم إذا مكنتهم منها ؟

قال : فما أصنع ؟

قال : عليك بأهل البيوتات الذين يستحيون لأنسابهم ، ويرجمون إلى أهراقهم ، فوَلِّهم .

قال بعض الأوائل : اجعل سرّك إلى واحد ، ومشورتك إلى ألف .
وقال محمد بن عبد الله بن طاهر لولده : عَفُوا تَشْرَفُوا ، واعشقوا
تَنْظُرُوا (١) .

قال فيلسوف : كما لا تشفق على عضو منك — إذا وقع فيه شيء — من
القطع مخافة أن يسرى بك ، كذلك لا ينبغي أن تشفق على اختلاف الشعب ،
والصبر في المكروه على إصلاح النفس .
وقال فيلسوف آخر : من التبيح أن تكون حاجة الإنسان إلى العقل أكثر
من حاجته إلى المال .

سئل فيلسوف : أي الرسل أحرى بالنجح ؟
قال : الذي له جمال وعقل .
وقال فيلسوف : الحسادُ مناشير لأنفسهم .
رأى فيلسوف غلاما جديلا لا أدب له ، فقال : أي بيت لو كان له أساس .
سئل رسول الله ﷺ : أي الأعمال أفضل ؟
فقال : إيمان لا شك فيه ، وجهاد لا مغلول فيه ، وحجة مبرورة .
قيل : فأى الصلاة أفضل ؟
قال : طول القيام .

قيل : فأى الصدقة أفضل ؟

قال : مُجَهْدُ الْقَتْلِ .

قيل : فأى الهجرة أفضل ؟

قال : أن تهجر ما حرم الله .

قيل : فأى الجهاد أفضل ؟

قال : من جاهد المشركين بنفسه وماله .

قيل : فأى القتل أفضل ؟

قال : من هَرَبَ دمه في سبيل الله^(١)

يقان : هرقت الماء ، وأرقت الماء ، وقيل : أهرقت الماء . قال الشاعر :

شربنا فأهرقنا على الأرض ففضلةً وللأرض من كأس الكرام نصيبه

الجرِيضُ : الذى يَغْبِصُ ريقه . والمثل : حال الجريض دون القريض .
والوسق : الطور ، وجماعة وسائق .

والطَّلَا : ولد الضائنة ، والطلا : الصغير من ولد ذات الظلف ، وإمته

سمى طلاً ، لأنه يُطْلَى في رجله بخيط^(٢) . هكذا حفظته من المجالس^(٣) .

قال على بن أبى طالب — رضى الله عنه — : قال رسول الله ﷺ —

من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو

(١) راجع حلية الأولياء ١٦٦/١

(٢) (٣) . ١١٥

(٢) أى تشد رجله بخيط ما دام صغيراً

حين كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته ، وحرمت غيبيته .
قيل : لراية العدوية — وكانت ناسكة مَفْوَّمة ، وشأنها شهير ، وأمرها
خطير — : كيف حُبِّكَ لرسول الله ﷺ ؟

قالت : إني أحبه ، ولكن قد شغلني حبُّ الخالق عن المخلوق .
هذا الكلام عويص التأويل ، خَرَطُ القِتَادِ دونه ، وَلَقَطُ الرَّمْلِ أسهل
منه ، وهي موكولة فيه إلى الله تعالى . وقد رويته كما رأيت .

قال يحيى بن مَمَازٍ الرَازِي :
إذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، وإن رضى اصطفاه ، وإن سقط
نفاه وأقصاه .

وقالت أعرابية هند السكبية : إلهي ، لك أذِل ، وعليك أدِل .
وقال الجُنَيْدُ بن محمد أبو القاسم المصوفي : إذا أحبك سترك ، وغار عليك ،
وإذا أحبهته شَهَرَكَ ، ونادى عليك .
وفخار البغداديين : الجُنَيْدُ عظيم ، يقدمونه على أبي يزيد البسطامي (١) .

— ٤ —

قيل لفيلسوف : أي الحيوان أكثر صنعة مع محبته لها ؟
فقال : أما ما يُنْتَفَعُ به فالنحل ، وأما لا يُنْتَفَعُ به فالمنكبوت .
وجاء بمض السكبيين — وهم جنس من اليونانيين — إلى الإسكندر . فقال له :
هب لي مثقالا واحدا .

فقال الإسكندر : ليس هذا عطاء الملوك .

قال : فهَبْ لى قطارا . فقال الإسكندر : ولا هذا سؤال كافي .

أشير على الإسكندر بالبيات فى بعض الحروب .

فقال : ليس من آيين الملوك استراقُ النظر .

آيين : لفظ فارسى ، يراد به السيرة والصورة والثرى والرسم . وما تعرفه العرب ، وإنما ألقى الشيء على حد ما سمعته الأذن ، ووعاه الصدر ، والدون من الله تعالى على نصرته الحق ، والدب عن الصواب فيما تملق بالدين ، وعاد إلى سياسة الحياة .

كان يوسف بن عمر يقول — إذا ذكر الحجاج — كان الدخان وأنا اللهب .

وقال عبد الله بن عباس رحمه الله : الخط لسانُ اليد .

وقال معن بن زائدة : ما رأيت قفا رجل إلا عرفت عقله . قيل له : فإن رأيت وجهه ؟ قال : ذاك حينئذ كتاب أقرؤه ^(١) .

قيل لأرسطا طاليس : ما بال الحسدة يحزنون أبدا ؟

قال : لأنهم لا يحزنون لما ينزل بهم من الشر فقط ، بل لما ينال الناس أفضله من الخير .

وكان بعض السلف يقول : اللهم احفظنى من أصدقائى .

فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : إِنِّي أَحْفَظُ نَفْسِي مِنْ أَعْدَائِي .
 وَقَالَ فِيلَسُوفٌ : حَيْثُ يَكُونُ الشَّرَابُ لَا تَسْكُنُ الْحِكْمَةُ ، وَلَا تَلْبِثُ الْغَفْلَةُ .
 وَقَالَ صَاحِبُ الْمَنْطِقِ : الْأَفْلَاكُ حَصْنٌ لِلْعَاقِلِ مِنَ الرِّذَالِ ، وَطَرِيقٌ إِلَيْهَا
 لِلْجَاهِلِ .
 وَكَانَ بَعْضُ الْفَلَسَفَةِ يَقُولُ : اسْتَهِينُوا بِالْمَوْتِ حَتَّى يَهْوَنَ عَلَيْكُمْ فِرَاقُ
 الدُّنْيَا .
 كَانَ أَبُو هِشَامِ الرَّفَاعِيُّ يَمْشُقُ جَارِيَةَ سَوْدَاءَ سَمِينَةً ضَخْمَةً ، فَكَانَ يَمَكِّصُ
 لِسَانَهَا ، وَيَشْمُ مِثْنَانَهَا ، وَيَسْتَنْشِيءُ رِيحَهَا ، عَجَبًا بِهَا ... (٢) .

- ٧ -

المحاضرات

إسمه المحاضرات^(١) أو محاضرات العلماء^(٢) أو المحاضرات والمناظرات .

لن أنفه ؟

قال أبو حيان إنه اتصل بالدجلجى ، بشيراز ، وجمع له كتاب المحاضرات ،
وتعب فيه^(٣) . ثم تحدث عن إكرام الدجلجى له ، ووفائه بما وعد من مكافأته^(٤) .
وأغلب الظن أن فى كلمة (الدجلجى) تحريفا ، لأنه لم يعرف شخص بهذا
الاسم .

وقد تحقق الدكتور عبد الرزاق محي الدين من أن المديجلجى الذى كان
وزيرا لصمصمام الدولة يشيراز مدة سجن وزيره أبى القاسم الملاء بن الحسن
سنة ٣٨٢ إلى ٣٨٣ هـ ، نقلا عن السكامل لابن الأثير (جزء ٩ صفحة ٣٥)
ونقلا عن غرر الحصائص الواضحة .

والمديجلجى هذا هو أبو القاسم العمر بن الحسين المديجلجى^(٥) .

موضوعه :

يبدو من بقايا الكتاب أنه أخبار أدبية خالصة ، ووصف لبعض مجالس
العلماء ، وتسجيل لبعض ما دار فيها من علم وأدب .

(١) معجم الأدباء ٨/١٥ ، ١٤ و ١٠٢/١٨

(٢) المعجم ٦٧/١ ، ١٥٢/٨

(٣) معجم الأدباء ١٥ / ١٤

(٤) المعجم ١٥ / ١٦

(٥) أبو حيان التوحيدي ٢٤٣

نماذج من كتاب المحاضرات

تأخرت عنه أياما فقال لي : يا أبا حيان ، من أين ؟ فقلت :
إذا شئت أن تُقَلِّيَ فزر متواترا وإن شئت أن تزداد حبا فزر غيبا
وهذا لئلا يظهر لي منه ، وقليل إمرأى عني في يوم . فقال لي : ما هذا
البيت إلا بيت جيد يعرفه الخاص والعام ، وهو موافق لما يذكر من أن النبي
ﷺ قال : زر غيبا تزداد حبا . فلو كان لهذا البيت أخوات كان أحسن من أن
يكون فردا .

قلت : فله أخوات . قال : فأنشدني .
قلت : لا أحفظها . قال : فأخرجها . قلت : لا أهتمدي إليها . قال : فن
أين عرفتها ؟

قلت : مرت بي في جملة تعليقات .
قال : فاطلبها لأقدم رسمك . قلت : فقدّمه الآن على شريطة أنه إذا جاء الوقت
للمبتاد إطلاقه فيه كل سنة أطلقت أيضا .
قال : أفعل . قلت : فنحنها الآن .

سمعت العروضي أبا محمد يقول : دخل بعض الشعراء على عيسى بن موسى
الرافقي ، وبين يديه جارية يقال لها خلوب ، فقال لها : اقترحي عليه .
ف قالت :

إذا شئت أن تقلى فزُر متواترا وإن شئت أن تزداد حبا فزُر غبا
أجزه بأبيات تليق به . فأنشد :
بقيت بلا قلب فإني هائم فمل من مُعِير يا - لوبُ لـكم قلبا ؟
حلفتُ رب البيت أنك مُتَيَسِّق فكوني لـمِيني ما نظرتُ لها نُصْبها
عسى الله يوما أن يرينيك خاليا فبزداد لحظي من محاسنكم مُجْشبا
إذا شئت أن تُقَلَى فزُرْ متواترا وإن شئت أن تزداد حبا فزُر غبا (١).

— ٣ —

حدثنا القاضي أبو حامد أحمد بن بشر قال : كان الفراء يوما عند محمد بن أبي
الحسن ، فتذاكرا في الفقه والنحو . ففضل الفراء النحو على الفقه ، وفضل محمد بن
الحسن الفقه على النحو ، حتى قال الفراء :

قل " رجل أنعم النظر في العربية ، وأراد علما غيره . إلا سهّل عليه . فقال
محمد بن الحسن : يا أبا زكريا ، قد أنعمت النظر في العربية ، وأسألك عن باب
من الفقه . فقال : هات على بركة الله تعالى . فقال له : ما تقول في رجل صلى
ففسها في صلاته ، وسجد سجدة السهو ففسها فيهما ؟ فتفكر الفراء ساعة ، ثم
قال : لا شيء عليه . فقال له محمد : لم ؟

قال : لأن التصغير عندنا ليس له تصغير ، وإنما سجدتا السهو تمام الصلاة
وليس للتمام تمام .

فقال محمد بن الحسن : ما ظننت أن آدميا يلد مثلك (٢).

(١) معجم الأدباء ١٥ / ١٤

(٢) معجم الأدباء ١ / ٦٨

— ٩١ —

— ٣ —

حضرت مجلس شيخ الدهر ، وقريع العصر ، المديم الثقل ، المفقود الشكل «
أبي سعيد السيرافي ، وقد أقبل على الحسين بن مَرْدَوَيْهِ الفارسي يشرح له ترجمة
المدخل إلى كتاب سيبويه من تصنيفه .

فقال له : عَلِّقْ عليه ، واصرف همتك إليه ، فإياك لا تدركه إلا بتمب
الحواس ، ولا تتصوره إلا بالاعتزال عن الناس .

فقال — أيد الله القاضى — : أنا مؤثر لذلك ، ولكن اختلال الأمر ،
وتصور الحال يحول بيني وبين ما أريده .

فقال له : ألك هيال ؟ قال : لا . قال : عليك ديون ؟ قال : درهجمات . قال :
فأنت رَئِيحُ القلب ، حسن الحال ، ناعم البال . اشتغل بالدرس والمذاكرة ،
والسؤال والمناظرة ، واحمد الله تعالى على خفة الحاذِر — قلة المال — وحسن
الحال ، وأنشده :

إذا لم يكن للمرء مال ولم يكن له طريقٌ يسـمى بهن الولائد
وكان له خبز وملح ففيهما له بـلـغَةٌ حتى تجيء المواعد
وهل هي إلا جـوعَةٌ إن سددتها فكل طعام بين جنبيك واحد
ووقف رجل على الحسن فقال : علمنى ما يقربنى إلى الله تعالى وإلى الناس -
قال : أما ما يقربك إلى الناس فتركُ مسائلهم ^(١) .

لما مات المراغى — وكان قدوةً في النحو ، وعلمًا في الأدب كبيرًا ، مع حداثة
سنه ورقة حاله ، وإن قلتُ إنى ما رأيتُ في الأحداث مثله كان كذلك — استرجع
أبو سعيد السيرافى ، واستمهر ، وأنشد :

من عاش لم يخلُ من هم ومن حزن
وإنما نحن في الدنيا على سفر
وكلنا بالردى والموت مُرتَهَنٌ
من الذى آمن الدنيا فلم يتحسُنْ
كلُّ يقال له : قد كان ، ثم مضى
ثم قال : قوموا بنا لتجهيزه وتولية أمره ، فتبعمناه على ذلك . فلما أخرجت
جنازته بكى وأنشد :

أساءت بنا الأيام مُنِمَّتْ أحسنت
وما زال صرفُ الدهر مذكان مولما
وكلُّ من الأيام غيْرُ بديع
بتأليف شقى أو بشتٍ جميع^(١)

تقريظ الجاحظ

تنبىء كتب أبى حيان عن إعجابه بالجاحظ ، وتقديره له ، وعن تأثيره به .
فهو يرجع إليه ، ويتوفر على تصحيح كتاب الحيوان ، ويثنى على مؤلفاته كلها .

وقد ذكر كتب الجاحظ في مراجعه التى استقى منها كتابه البصائر والذخائر ،
وأطاراها بقوله : « وكبه هى الدُر الثمير ، واللاؤلؤ الطير ، وكلامه الخمر العُصف ،
والسحر الحلال » (١) .

وذكر أن ابن سمدان استكتبه كتاب الحيوان للجاحظ ، لأنه يعلم
عنايته به ، وتوفره على تصحيحه (٢) .

وإزدحام أن ثابت بن قرة الصائى يمد الجاحظ مفخرة من مفاخر الأمة
العربية (٣) .

فلا عجب في أن يؤلف كتابا في تقريظه ، وقد نقل ياقوت هذا
الكتاب (٤) .

(١) البصائر والذخائر ٥

(٢) الإمعان والواصفة ١/٥

(٣) معجم الأدباء ١٦/٩٥

(٤) معجم الأدباء ٣/٢٧ ، ١٦/٩٥ — ١٠٢

نماذج من تقریظ الجاحظ

— ١ —

قال ياقوت^(١) : قرأت بخط أبي حيان التوحیدی من
فی تقریظ الجاحظ :

وحدثنا أبو سمید السیرافی — وهـمـك من رجل و
وشرعك من صدوق — قال : حدثنا جماعة من الصا
ثابت بن قرة قال : ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة
عقیم النساء فلا یلدن شیهه إن النساء بم
فقیل له : أحص لنا هؤلاء الثلاثة .

قال : أولهم مر بن الخطاب فی سیاسته وبطلته وحذر
موتیته ، وجزالتة وبذالتة وصرامته وشهامته ، وقیامتة فی
وکیمر بنفسه ...

والثانی الحسن بن أبی الحسن البصری ، فلقد کان من د
وتقوی وزهدا وورطا وعفة ورقة ...

والثالث أبو عثمان الجاحظ ، خطیب المسلمین ، وشمخ الم
التقدمین والمتأخرین ، إن تسکم حکى سحبان فی البلاغة
النظام فی الجدال ، وإن سجد خرج فی مسنک عامر

وان هزك زاد على مزيّد . حبيب القلوب ومزاج الأرواح . وشيخ الأدب
ولسان العرب .

وكتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مشمرة ، ما نازع إلا رشاء آنفًا ،
ولا تعرض له منقوص إلا قدم له التواضع استبقاء . الخلفاء تعرفه ، والأمراء
تصانئيه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه ، والخاصة تسلم له ، والعامّة تحبه .

جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأي والأدب ، وبين
الانثر والنظم ، وبين الذكاء والفهم ،

طال عمره وفشت حكمته ، وظهرت خلاته ، ووطئ الرجال عقيبته ،
وتهادوا أدبه ، وافتخروا بالانتساب إليه ، ونجحوا بالافتداء به .

تقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب .

هذا قول ثابت بن قرة ، وهو قول صائب لا يرى للإسلام حرمة ،
ولا للمسلمين حقًا ، ولا يوجب لأحد منهم ذمًا . قد انتقد هذا الانتقاد ، ونظر
هذا النظر ، وحكم هذا الحكم ، وأبصر الحق بعين لاغشاة عليها من الحؤول
— خوف النقد — ونفس لا تَطْع — لالوث — بها من التقليد ، وعقل
ما تحيّل بالمعصية .

ولسنا نبجل مع ذلك فضل غير هؤلاء من السلف الطاهر والخلف
الصالح .

ولكننا عجبتنا فضل عجب من رجل ليس منا ولا من أهل مملكتنا وانفتنا
— ولعله ما خبر مر ابن الخطاب كل الخبرة ، ولا استوعب كل ما لاحسن من

— ٩٦ —

المنقبة ، ولا وقف على جميع ما لأبي عثمان من البيان والحكمة — يقول هذا القول ، ويتمجب هذا المعجب ، ويحسد أمتنا بهم هذا الحسد ، ويختم كلامه بأبي عثمان ، ويصفه بما بأبي الطاعن عليه أن يكون له شيء منه ، ويفضض إذا ادعى ذلك له كوفز عليه — حقد يجعله يثب — هل هذا إلا الجهل الذي يُرّحم البستلى به ؟

— ٣ —

قيل لأبي هـان : لم لاتهجرو الجاحظ ، وقد ندّد بك ، وأخذ بمُسَخَّنك ؟ فقال : أمثلى يُخدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة في أرنبة أنى لما أُمسّت إلا بالعين شهرة . ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة .

— ٤ —

قلت لأبي محمد الأندلسى — يعنى عبد الله بن محمود الزبيدى — وكان من عدد أصحاب السيرافى : قد اختلفت أصحابنا فى مجلس أبى سميد السيرافى فى بلاغة الجاحظ وأبى حنيفة الدينورى ، صاحب النبات^(١) ، ووقع الرضا بحكمك ، فما قولك ؟ قال : أنا أحقر نفسى عن الحكم لهما وعليهما . ففيل له : لا بد من قول .

قال : أبى حنيفة أكثر ندارة^(٢) ، وأبو عثمان أكثر حلاوة . ومعانى أبى عثمان لائطة^(٣) بالنفس ، سهلة فى السمع ، ولفظ أبى حنيفة أعذب وأغرب وأدخل فى أساليب العرب .

(١) اسم كتاب من تأليفه . وكان نحوياً لغوياً مهندساً منجماً حاسباً راوية ثقة .
وتوفى سنة ٢٨٢ هـ (٢) ذكر النوادر (٣) لاصقة

قال أبو حيان : والذي أقول وأعتقد وأخذ به أنى لم أجد فى جميع من
تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان^(١) على تقريرهم ونشر فضائلهم ... لما
بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم . أحدهم هذا الشيخ الذى أنشأنا له هذه
الرسالة ، وبسببه جُشِّمنا هذه السكفة ، أعنى أبا عثمان صرو بن بحر . والثانى
أبو حنيفة الدينورى ... والثالث أبو زيد أحمد بن سهل البجليّ ...
ولو تناصرت إلينا أخبارها لكُنَّا نحب أن نفرّد لكل واحد منهما تقريرا
مقصودا عليه ، وكتابا منسوباً إليه ، كما فعلت بأبي عثمان^(٢) .

(١) الإلّس والجن

(٢) معجم الأدباء ٣ / ٢٧

رسالة العلوم

دافع فيها عن العلوم ، وبين الحاجة إليها ، ومثل بالفقه والسنة والقياس وعلم الكلام والذهبي واللغة والمنطق والنجوم والحساب والهندسة والبلاغة والتصوف .

نماذج من رسالة العلوم

والذي هاجني لهذه الشكوى ، وأخرجني إلى هذه العدوى ، قول قائل منكم :
ليس للمنطق مدخل في الفقه ، ولا للفلسفة اتصال بالدين ، ولا للحكمة تأثير
في الأحكام .

وهذا كلام من لو أنتم النظر ، واستقصى الحال ، لوقف على ما عليه فيه ،
وعرف ما له منه ، فكان يستبدل بالخلاف وفاقا ، وبالمنازعة خلافا .

عاب هذا الرجل المنطق ، وهيجن طريقة الأوائل ، وزرعى على الحكمة ،
وقيل رأى الناظر فيها ، وقبّح اختيار الباحث عنها .

وهذا كله - إن لم يكن قتله - سوء تحصيل ، فإنه يوشك أن يكون ضيق
عطن ، وحرّج صدر ، ومجازفة في القول ، وانحرافا عن الصواب ، وأنما من
الاعتقاب .

الدليل على ذلك ، والبرهان فيه أنه قد سبق في قضايا العقول الصحيحة ،
وثبت في مقدمات الأبواب الصريحة ، أن العلم أشرف من الجهل ، بل لا شرف
للجهل ، فيكون غيره أشرف منه ، لأن الجهل عدم . هكذا قيل ، والوجود أشرف

من المدم، والصحة أشرف من السقم . فإذا كان العلم شريفاً وأشرف من كل شيء،
فقد استوعب الجنس هذا الموم ، واشتمل على الأصل والفرع هذا الإطلاق، لأن
العلم بالألف واللام لا يختص معلوماً دون معلوم ، ولا مشاراً إليه دون مدلول عليه،
فقد دخل في هذا العليّ كل ما أنبأ عن شيء كان ذلك من قبيل الحسن عند
مصادمته ، أو من قبيل العقل عند مصادفته .

وسأبين أمتاب العلم في هذا الموضع على وجه الإيجاز ، فإن استقصاءها
لأخويه هذه الرسالة ، ولا يتسع له هذا الوقت .

على أن شيوخ العلم ، وأرباب الحكمة ، وفرسان الأدب ، قد فرغوا من جميع
ذلك في كتب مشهورة ، تشتمل على آداب مأثورة ، مثل كتاب أقسام العلوم ،
وكتاب اقتصاص الفضائل ، وكتاب تسهيل سبل المعارف . فمن نظر في هذه
الكتب عرف مغازي الحكماء ، ومرامي العلماء ... (١)

أما الفقه فإنه دأب بين الحلال والحرام ، وبين اعتبار الملل في القضايا والأحكام،
وبين الفرض والنافلة ، وبين المظهور والمباح ، وبين الواجب والمستحب ، وبين
المحذور عليه والمنزه عنه . وكل ذلك موقوف على ظاهر الكتاب وباطنه ، وتنزيله
وتأويله ، وبحكمه ومتشابهه ، وناسخه ومنسوخه ، وتقديمه وتأخيريه ، وعمومه
وخصوصه ، وإجماله وتفسيره ، وإطلاقه وتقييده ، وجمعه وتوحيده ، وكتابته
وضميره ، وبجازه وحقيقته ، وتعريضه وتصريحه (٢) ...

(١) ٢٠١ ملحق برسالة الصداقة والصديق .

(٢) ٢٠٢

— ١٠٠ —

— ٣ —

وأما الناظر في البلاغة فإنه مشام لكل صنّف سلف وصفه ، وتقدم نعمته ،
لأنه يباشر بلسانه وقلمه أحوالا مشتبهة ، يروم فيها أقصى ممانيتها . . . لأنه قد يدفع
بصناعته إلى سلّ السخائم ، وإلى حل الشكائم ، وإلى الفارة في المسلك ، وإلى
دقيق ما يتعلق بالخاصة ، وجليل ما يرجع نفعه إلى العامة ، فمقله أبدا مسافر ،
ولفظه متبّع ، والناس له أعداء ، لأنهم بين جاهل لا يلحظ ما لحظ ، وعالم
يحسده على ما لفظ . وعند ذلك يلزمه مداواة الجهل بالإعراض ، ومداواة العالم
بالاقتباس .

والذي ينبغي له أن يبرأ منه ، ويتباعد عنه ، التكلف ، فإنه مفسّخة ،
وصاحبه مذموم ...

ومن استشار الرأى الصحيح في هذه الصناعة الشريفة علم أنه إلى سلامة
الطبع أحوج منه إلى مغالبة اللفظ ، وأنه متى فاته اللفظ الحر ، لم يظفر بالمعنى
الحر^(١) ...

الزلفة

لستنا نعرف شيئا عن هذا الكتاب ، وإن كان النموذج الباقي منه يرجع لدينا لأنه في التصوف والزهد أو ما يتصل بهما .

مناذج من كتاب الزلفة

١١ مات عند الدولة سنة ٣٧٢ هـ قال أبو حيان في كتابه (الزلفة) : لما صحت وفاة عند الدولة كننا عند أبي سليمان السجستاني (محمد بن طاهر بن بهرام المنطقي) وكان القوم سي حاضرا والنوشجاني وأبو القاسم غلام زحل (أبو القاسم ابن الحسن المنجم) و ... فتنا كروا الكلمات المشهورة التي قالها الحكماء المشرة عند وفاة الإسكندر .

فقال الأندلسي : لو قد تقوض مجلسكم هذا بمثل هذه الكلمات لكان يؤر عنكم ذلك .

فقال أبو سليمان : ما أحسن ما بمثل عليه . أما أنا فأقول : لقد وزن هذا الشخص الدنيا بنير مثقالها ، وأعطاه فوق قيمتها . وحسبك أنه طلب الربح خبها نفيس روحه في الدنيا .

وقال الصفييري : من استيقظ للدنيا فهذا يومه ، ومن حطمها فهذا اتبأه . وقال النوشجاني : ما رأيت غافلا في غفلته ، ولا عاقلا في عقله مثله ، لقد كان ينقض جانبها وهو بظن أنه مُبرم ، ويفسر وهو يرى أنه غانم . وقال المروزي : أما إنه لو كان معتبرا في حياته لما صار عبدة في مماته .

وقال الأندلسي : الصاعد في درجاتها إلى سَفَافٍ ، والنازل من درجاتها إلى مَعَالٍ .
 وقال القومسي : من جدَّ للدنيا هزلت به ، ومن هزل راغباً جدَّ له .
 انظر إلى هذا كيف انتهى أمره ، وإلى أي حضيض وقع شأنه ، وإلى لأطن
 أن الرجل الزاهد الذي مات في هذه الأيام ودفن بالشونيزية أخف ظهرا وأمر
 ظهوراً من هذا الذي ترك الدنيا شاغرة ، ورحل عنها بلا زاد ولا راحلة .
 وقال غلام زحل : ما ترك هذا الشخص استمظهاراً بحسن نظره وقوته ،
 ولكن قلبه ما منه كان ، وبمؤنته بان .
 وقال ابن المقداد : إن ماء أطفأ هذه النار العظيم ، وإن ريحاً زعزعت هذا
 الركن لمُصَوِّفٌ .

فقال أبو سليمان : ما عندي في هذا الحديث أحسن مما سمعت من أبي إسحاق
 الخطيب الهاشمي لما نراه على المنبر يوم الجمعة فقال في خطبته : كيف غفلت عن
 كيد هذا الأمر حتى نفذ فيك ؟ وهلا اتخذت دونه جُنَّةً تقيك ؟ ماذا صنعت
 بأموالك والعبيد ، ورجالك والجنود ، وبحولك العتيد ، وبدهالك الشديد .. (١)

الإشارات الإلهية

ذكره بأقوت وقال إنه خبرآن .

والجزء الأول مخطوط بدار السكتب بدمشق بالمسكبة الظاهرية ، وبالمعمرية بالقدس ، ومنه مخطوط في مكتبة برلين ، كما ذكر بروكلان .
ويظهر أنه ألفه في أواخر حياته ، بدليل قوله لبعض مرثديه : « أنا نطقْتُ بهذه الألفاظ بعد سبعين سنة ، وقد تحطمت قناتي ، وتكشفت شواتي ، وتفللت صفاتي ، واضمحلت صفاتي ، ولبيت الخبيثي وسداتي ، وفقدت شهواتي ولداتي ، ومُنيبت بموت أحييتي ولداتي »^(١)
وبدليل السجع المتصل فيه .

موضوع

توجيه ، وتهذيب للصوفية ، وحض لهم على عملية نفوسهم بالعبادة والطاعة ، ليزدادوا عرفانا بالله ، وتعلقا به ، وبعدا عما سواه ، وتفرغ إلى الله ، ودعوات .

طريقته

الكتاب في رسائل ، تبدأ كل رسالة بدعاء طويل ، بعده موعظة وإرشاد .
وليس في الكتاب شكوى ولا حقد ولا ثلب ولا حملة على أحد .
وأسلوبه في هذا الكتاب مسجوع في فقرات قصار تشبه الشعر المنثور .

(١) النسخة الظاهرية ورقة ٩٣ عن (أبو حيان التوحيدى للدكتور عبد الرزاق

ولعل أبا حيان بفترة الجليل المسجوع هو الذي استطاع أن يحمل الفئر محل
الشعر في التصوف والابتهاال .

نموذج من الإشارات الإلهية

« اللهم إليك أشكوما نزل بي منك ، وإيالك أسأل أن تعطف علي برحمتك ،
فقد — وحقك — شددت الوثاق ، وضيقته الخناق ، وأقمت الحرب بيني وبينك
على ساق . فبحقك وعزتك إلا أرضيت وتغمّدت ، وأحسنّت وتفضلت .
اللهم إن مرضنا كان بك ، فاجمل شفاءنا على يدك . وإن خلافتنا لك كان
بقضائك ، فاغفر لنا الآن بتفضلك وحبائك ، وإن زيّنا كان بملك بنا وحملك
عنا ، فاجمل تقويمنا الساعة بلطفك عندنا ، وتفضلك علينا^(١) . »

(١) الإشارات الإلهية ٤٣ — ٤٥ مخطوط . نقلا عن (أبو حيان التوحيدى الدكتور
عبد الرزاق محي الدين ٢٣٥)

خصائصه الفكرية والفنية

كان في القرن الرابع كتاب يحولون في الموضوعات الثقافية ، ويفنذون عقولهم وقراءهم بألوان من المعرفة ، يصورونها بأفلامهم الفنية ، ويهتمون بالتعبير القوي عن أفسكارهم ، في غير إيثار للتزويق على الفكرة . من هؤلاء أبو حيان، وابن إسحاق الصابي، ومسكويه، والشريف الرضي .

وكان في العصر كتاب آخرون ، مُجلّ موضوعاتهم رسائل ديوانية وإخوانية ومقامات، ومهمود ، وطريقتهم تعتمد على إيثار اللفظ والصناعة .

ومنهم ابن العميد، وبديع الزمان، والخوارزمي، وابن عباد .

والمعجب أن الغلبة صارت لهؤلاء ، لأن أكثرهم من الوزراء والحكام وذوى الجاه ، ولأن مقاليدهم بأيدي الأعاجم ، وهم ينجحون إلى الزخرف والصناعة ، ولأن العربية الأصيلة كان ظلها يتقلص في الأدب والتعبير ، كما تقلص سلطانها في الملك والحكم والسياسة .

أما أبو حيان فقد خرج على الموضوعات الغالبة في عصره ، من رسائل إخوانية وديوانية ومقامات وكتب مهمود .

وخرج أيضا على الأسلوب الشائع في القرن الرابع ، أسلوب الاحتفال باللفظ والصناعة أكثر من الفكرة .

ولهذا قدّمه كثير من الدارسين الحديثين ، مثل السندوبي ومحمد كرد علي وزكي مبارك، وعبد الرزاق محيي الدين .

وقدّره المستشرق آدم متز في قوله : ربما كان أبو حيان التوحيدي أعظم كتاب النثر العربي على الإطلاق^(١). وفي قوله أيضا :

« إن رسائل القرن الرابع الهجري هي أجمل آية للفن الإسلامي ، ومادتها أنفس ما اشتغل به ألفنانون ، وهي اللغة . ولو لم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التي صنعتها أيدي الفنانين في ذلك العهد من الزجاج والمعادن لاستطعنّا أن نرى في هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للجمال الرقيق ، وامتلأ بهم للناسية البيان في أصعب صوره ، وتلاهم بذلك تلاعبا ... »

إلى أن يقول : هذه الطريقة بما فيها من زخارف كثيرة جمعت اللغة سلسلة القيادة ، قوية التعبير ، وزادتها تلطيفا رغم الاختصار . وهي الطريقة التي لجأ إليها كل الذين كانوا يريدون التعبير عما في نفوسهم ، مراعين في ذلك غاية ما أرادوا من الإيجاز والقوة والحرية في التعبير . وقد بلغ أبو حيان التوحيدي المتوفى عام ٤٠٠ هـ مرتبة الأستاذ لهذه الطريقة .

وأول ما نلاحظه أنه كان عالما بدقائق الأسلوب الرائع ، وقادرا عليه . غير أننا نسكاد لا نلاحظ في أسلوبه ذلك التكلف الذي نجده عند غيره من الأدباء .

ولم يكتب في النثر العربي بعد أبي حيان ما هو أسهل وأقوى وأشدّ تعبيرا عن شخصية صاحبه مما كتب أبو حيان . ولكن الجمهور كان يعيل إلى طريقة الآخرين في البديع . ولقد كان أبو حيان فنانا غريبا بين أهل عصره ، وكان يمانى وحشة من يرتفع على أهل زمانه ويتقدم عليهم^(٢) .

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٣٩٥ آدم متز .

(٢) المرجع السابق ٣٩٩ — ٤١٦

وهذه خصائص أبي حيان التي امتاز بها .

— ١ —

يمتاز أبو حيان بأنه — في أكثر ما يكتبه بأسلوبه — لا يمدُّ قلبه من عقله وحده ، ولا يعتمد على جرس الكلمة ووقع الجملة فحسب ، وإنما يمدُّ قلبه من قلبه ، ويعتمد على حرارة عاطفته وقوتها وصدقها . فهو كاتب فكرة حيث يعبر عن فكرة ، وهو كاتب عاطفة حيث يصور عاطفة ، ولقد يكتب عن الفكرة بقوة وحرارة ، فيمزج عاطفته بفكرته ، لأنه يدين بما يقول ، وينافع عن رأى أو مذهب .

ومن هنا كانت الحيوية والقوة والحرارة غالبية فيما كتب أبو حيان بقلبه ، وفيما نقله من غيره أو رواه عنه بعد أن أعمل فيه قلبه ، وهذا بفنه .
ومن هنا نجد الفرق واضحا بين أسلوبه وأسلوب كثير من معاصريه ، ونفسه يبين ما نقله من معاصريه بأسلوبهم ، وما نقله عنهم بأسلوبه .
وخير ما يمثل مذهبه قوله إن البليغ ينبغي له أن يبرأ من التكلف ، ويتباعد عنه ، لأنه مفضحة ، وصاحبه مذموم . ومن استشار الرأى الصحيح علم أنه إلى سلامة الطبع أخرج منه إلى مخالفة اللفظ ، وأنه حتى فاته اللفظ الحر لم يظفر بالمعنى الحر^(١) .

وهذه السمة تنضح أبرز ما تنضح في شكواه من حظه ، وتصويره لبؤسه ، ووصفه للشقات التي لا قاهها ، وخيبة الأمل التي منى بها ، حتى استكانه شاعر مهتاج .

مثل قوله :

قد أصبحنا في هذه الدار ، وكأنما هي قاع أملس ، أو أتر أخرس . لم يبقَ من يرخصى هديه ، أو يخطب مُرُفه ، أو يقتضى جوده ، أو يُقتدح زنده .

أو يستفاد لفظه ، أو يُتَوَخَّى مكانه ، أو يُعْرَفُ حَدُّهُ بأدب من الآداب عليه ،
أو يُبَاشَرُ بوجه من الوجوه إليه . وما ذاك إلا لِسَمَلِ القلوب ، ودَخَلِ الأهراق ،
وغلوة الدين ، وغلبة القحمة ، وارتفاع المراقبة ، وسقوط الهيبة ، ورفض
السياسة ، والتبجح بالفحشاء والمنكر^(١) .

وقواه :

« فقدتُ كل مؤنس وصاحب ، ومرافق ومشفق ، والله لربما صليت في الجامع
غلا أرى إلى جنبي من يصلى ممي . فإن انفق فبِقَالٍ أو عَصَارٍ أو نَدَافٍ أو
قصَابٍ ، ومن إذا وقف إل جانبي أسدرني — ضايقتني — بصنانه ، وأسكرني
بنتنه . فقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب السُّنْجِلَةِ ، غريب الخُلُقِ ،
مستأنسا بالوحشة ، قانما بالوحدة ، معتادا للصمت ، ملازما للحيرة ، محتملا
للأذى ، يأثسا من جميع من ترى »^(٢) .

على أنه قد سجَّلَ ثقافة معاصريه ، ومن قبلهم ، بكثرة ما روى عنهم ، ونقل
من كتبهم ، وسمع من أنواعمهم . وسجَّلَ ما كان يسمعه في مجالس العلماء والأدباء
من محاوراة ومجادلة ومناظرة .
وقد أوضحنا هذا في تحليل كتبه .

وهو الوحيد الذي دوَّن المناظرة بين أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس ،
في المفاضلة بين النحو العربي والمنطق اليوناني^(٣) .

(١) المقابسات ١١٧

(٢) الصداقة والصديق ٦

(٣) الإمتاع والمؤانسة ١٠٨/١ ومجمع الأدباء ١٠٥/٣

— ٣ —

وامتاز أبو حيان بثقافته الواسعة ، وجنوحه إلى تزويد الأدب بأنوان شتى من المعرفة والعلوم ، كما رأينا في تحليل مؤلفاته ، ففيها أفانين من اللغة والنحو والصرف والفلسفة والتصوف والفقه وعلم النفس والحيوان والنبات . وهو بهذا أديب عالم ، أكثر مما كان الجاحظ أديبا عالما .

— ٤ —

وإذا كان لأبي حيان أشباه في بعض خصائصه ، فإنه قد تفرد بوصفه للرجال ، وتحليل نفسياتهم ، والكشف عن مواهبهم ومميزاتهم ، وبيان مكانتهم ، ومآلهم وما عليهم .
وبطول بنا القول إن حاولنا عرض نماذج عدة من وصفه لمواهب الرجال وخصائصهم .

وقد مثالت لوصفه لبعض الشعراء في تحليل كتاب الإمتاع والمؤانسة .
وهذا مثال من وصفه للعلماء :

« أبو سميذ (السيرافي) أجمع لشَمَل العلم ، وأنظم لمذاهب العرب ، وأدخل في كل باب ، وأخرج من كل طريق ، وألزم للجادة الوسطى في الدين والخلق ، وأرَوَى في الحديث ، وأقضى في الأحكام ، وأفقه في الفتوى ، وأحضر بركة على المختلفة ، وأظهر أثرًا في المقتبسة .. »

وأما علي بن عيسى (الرَّمْثَانِي) فعلى الرتبة في النحو واللغة والكلام

والمروض والمنطق ، وعيب به ، إلا أنه لم يسلك طريق واضح المنطق ، بل
افترد صناعة ، وأظهر براعة . وقد عمل في القرآن كتابا نفيسا . هذا مع الدين
الشخين ، والمقل الرزين .

وأما ابن المرائي^(١) فلا يلحق بهؤلاء ، مع براعة اللفظ ، وسعة الحفظ ،
وهزة النفس ، وبلل الريق ، وفزارة السفست ، وكثرة الرواية ، ومن نظر في
كتابه (البهجة) عرف ما أقول ، واعتقد فوق ما أصف .

وأما المرزباني وابن شاذان وابن القيرمسيبي وابن حيسوي^(٢) فهم رواة
وحملات ، ليس لهم في ذلك نقسط ولا إجمام ، ولا إسراج ولا إجمام^(٣) .

وقال في وصف أبي سليمان المنطقي :

أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظرا ، وأقهرهم غرسا ، وأصفاهم فسكرا ،
وأظفرهم بالدر ، وأوقفهم على الغر ، مع تنطع في العبارة . ولكنة ناشئة من
المجمة ، وقلة نظر في الكتب ، وفرط استبداد بالخطار ، وحسن استنباط
للعويص ، وجراة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز^(٣) .

ووصف أبا إسحاق الصابي بأنه أحب الناس للطريقة المستقيمة ، وأمضاهم
على الحجة الوسطى ، وإنما يصاب بقلة نصيبه من النحو .

وممانيه فلسفية ، وطباعه عراقية ، وعادته مخمودة ... ونظمه منشوره ، ونثره
منظومه ، إنما هو ذهب إبريز كيما سبيلك فهو واحد ، هذا مع الظرف الناصع

(١) أبو الفتح محمد بن جعفر الهمداني كان حافظاً نحوياً بليثاً إخبارياً في نهاية القرن
والحرية . وله كتاب البهجة على مثال كتاب الكامل

(٢) الإمتاع والمؤلة ١/٢٩١ — ١٣٤

(٣) الإمتاع والمؤلة ١/٣٣

والتواضع الحسن، واللاهجة اللطيفة، والخلق الدمث، والمعرفة بالزمان،
والخبرة بأسنان الناس ... (١)

— ٥ —

تنبيه قراءة كتبه من قدرة قادرة على سياغة الأفكار، والترجمة عما بالنفس
من مشاعر وآراء.

فلذا عبر بأسلوبه مما يجيش بنفسه، أو عبر بأسلوبه مما يحكيه عن غيره في العلم
والفلسفة والأدب، أو روى عن غيره حادثا وقع أو قصة كانت، أو صور مناقشة
دارت، أو مناظرة حدثت، أجاد وصف ما وصف، وأبدع في التعبير عما حدث،
فلذا هو قدير على نقل الخواطر، كأنما هي خواطره.

ولسنا نشك في أنه كان كثيرا ما يعتمد إلى بيانه فيستمد من عقل ما سمع من
سواه، ويقتن به قلمه في تصويره ما يسجل، ودليلنا على هذا أن أسلوبه — أحيانا
كثيرة — واحد فيما يتحدث به عن غيره، وفيما يصوره ذات نفسه، سواء أكان تصويره هذا
تعبيرا عن شعور، أم إرازا لفسكرة، أم تصويرا لحال من الأحوال وحادثا من الحوادث.
وهذا هو السبب في أننا نجد فرقا كبيرا بين ما يروي به عن غيره بقلته الأصلية،
وما يروي به في كسائه من عبارته وتنميته.

وقد كان هو يعرف ذلك، وكان بعض أصدقائه يثق بذلك، لهذا فإننا
نصدقه في قوله:

قال لي بعض من أثق بحسنته: يليني أن تتأني لعمل ما أهلك فلان له، وشرفك

به ، و تحف إلى مراده (يريد تأليف كتاب المقابسات) وليس في فرش فضائل هؤلاء المشايخ ونقل كلامهم عليك مثنوة ، ولا مشقة فادحة ، ولا كلفة شديدة ؛ إن لم تبلغ فيها ذروة الخفاصة لم تقع منها إلى حضيض العامة ، بل إن لم يزد ما تحكيه عنهم رونق لفظ ، وبهاء وصف ، وتقريب بعيد ، وإيضاح مشكل ، لم تبغضه حظه من الحقيقة التي إليها انتهت المطالبة^(١) .

— ٦ —

أخذ النثر سلاحا للهجاء ، بدلا من الشعر ، وصور به غيظه وسخطه على من هجأهم .

كما نجد في هجائه لابن عباد ، وثلثه بمض معاصريه من علماء وشعراء وكتاب وحاشية .

وإن شئت فقل إنه صور بذنه مساوي معاصريه ، كما تحدث عن مميزاتهم وفضائلهم ، مع تحامل خاص على ابن عباد .

قال في وصف ابن عباد :

تراه عند هذا الهدر وأشباهه يتلو ويترجم ، ويظهر فرحا ويتفسم ، ويقول : نعمة السبق لهم ، وقصصنا أن نلحقهم ، أو نقف أثرهم ، ونشق غبارهم ، أو نرد غبارهم . وهو في كل ذلك يتشاكى ويتحائل ، ويؤلى شدقه ، ويبتلع ريقه ، ويرد كالأخذ ، ويأخذ كالمتمنع ، وينضب في عرض الرضا ، ويرضى في لبوس الغضب ، ويتهاك ويتمالك ويتقابل ويتمايل ، ويحاكي المومسات ، ويخرج في أصحاب السماجات^(٢) .

(١) المقابسات ١١٨

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٥٩/١

كان أبو حيان بصيرا بما يتطلب التعبير الفني من دقة وجهد ، فهو يقول :
إن الكلام صَليْفٌ تَيَّاه ، لا يستجيب لكل إنسان ، ولا يصحب كل
لسان ، وخطره كثير ، ومتعاطيه منور ، وله أَرْنٌ كأرن المهر ، وإياه كإياه
الحُرُون ، وزهو كزهو الملك ، وخَفَق كخفق البرق ، وهو يتَسَهَّل مرة ،
ويعز مرارا ، ويذل طورا ، ويمز أطوارا ^(١) .

ولهذا نجده قد برع في استعمال الكلمات ، لأنه صاحب حس لغوي دقيق في وضعها
المواضع الملائمة لها .

وقد يَسَّر عليه هذه البراعة علمه باللغة ، وحفظه لفرداتها ، وبَصَره
بمعانيها ، وذوقه المرهف في معرفة مدلولاتها ومناسباتها .

كقوله : « اللهم فلا تُخَيِّب رجاء هو مَنُوط بك ، ولا تُصْفِر كَفًّا
هي ممدودة إليك ، ولا تُتَذل نفسا هي عزيزة بمعرفتك ، ولا تسلب عقلا هو
مستغنى بنور هدايتك ، ولا تُقْذِر عينا فتحتها بنعمتك ، ولا تُخْرس لسانا
عودته الثناء عليك » ^(٢) .

فهو يدهو الله ألا يخيب رجاءه ، وألا يصفر كفه ، وألا يذل نفسه ، وألا
يسلب عقله ، وألا يقذى عينه ، وألا يخرس لسانه . وفي هذا دقة أي دقة ،
لأن فيه ملامحة بين الطالب والمطلوب .

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/٩

(٢) البصائر والدخائر ٣

ولو أنه قال مثلاً : اللهم لا تخيب كفا هي ممدودة إليك ، ولا تقذ نفسا هي
عزيزة بمعرفتك ، ولا تخرس عقلا هو مستضيء بنور هدايتك . لو أنه قال مثل
هذا لخرج عن حد البراعة في الاستعمال .

ثم إنه وصف كل مطلوب بما يلائمه ، فالرجاء منوط ، والسكف ممدودة ،
والنفس عزيزة ، والعقل مستضيء ، والعين مفتوحة ، واللسان لاهج بالثناء .

ولو فعل غير ذلك لكان غير دقيق ، كأن يقول : اللهم لا تخيب رجاء
هو عزيز بمعرفتك ، ولا تقذ عينا هي منوطة بك ، ولا تسلب عقلا عودته الثناء
عليك .

ومن هذا الضرب قوله :

وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصّة ، لأنه لا يخلو أحد من جاد أو
مُعامل أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سكّين أو حبيب أو صديق أو أليف أو
قريب أو بعيد أو وليّ أو خليف ، كما لا يخلو أيضا من عدو أو كاشح أو مُدّاج
أو مكاشف أو حاسد أو شامت أو منافق أو مُؤذ أو منابذ أو معاند أو مُزِيل
أو مُضِل أو مُبْغِل^(١) .

يغلب عليه إشار الإطناب ، سواء أكان بالسكّيات المترادفة التي تؤدي معنى
واحدا ، أو معاني جد متقاربة ، أم بتكرير المعنى بمبارات متفارقة كقوله :

اللهم إليك نرغب فيما أنت أهله ومظنته ومعروف به ، ونلتمس منك ما أنت واجده وقادر عليه ومأمول فيه . فهب لي بجمودك ومجدك رَوْحَ القلب بنور العقل ، وسكون البال ببصيرة النفس ، ورخاء العيش بدرور الرزق ، وصلاح الحال بفائض الخير ، وصواب القصد بثبات المقد ، وبلوغ الغاية بصحة العزم ، ونيل المراد بدوام الصبر ، وبعد الصيت بحسن السيرة ، وفاشي النعمة براتب العز ، وسلامة العاقبة بمحيازة الفوز^(١) .

وقوله :

ومتى أنصَفْتُكَ نفسك ، وهدتكَ الرأى ، ومَلَّكَتَكَ الزمام ، وجَنَّبْتُكَ الهوى ، وحملتكَ على النهج ، وحمتكَ دواعى المصيبة ، علمتَ علما لا يخالطه شك ، وتيقنتَ يقينا لا يَطُورُه (لا يقرب منه) ريب ، أنك ممن كَفَى مَثْوَنَةً بالتمب بدمصَّب غيره ، ومنح شريفَ الموهبة بطلب سواء^(٢) .

وقوله :

فما حديثه ؟ وما شأنه ؟ وما دُخَلتُه ؟ وما خبره ؟ فقد بلغنى أنك تقشَّاء ، وتجلس إليه ، وتُكسِّرُ عنده ، وتُورِّقُ له ، ولك معه نوادر مضحكة ، وبوادر ممتعة . ومن طالَّتْ عِشرته لإنسانُ صَدَقَتْ رِخْبَته به ، وانكشف أمره له ، وأمكن اطلاعه على مستكن رأيه ، وخافى مذهبه ، وهوى طريقته^(٣) .

وقوله : قد فهمتُ أيها الشيخ ، حفظ الله روحك ، ووكل السلامة بك ، وأفرغ الكرامة عليك ، وعصَّب كل خير بحالك ، وحشد كل نعمة في رحابك ، ورحم هذه الجماعة الهائلة — من أبناء الرجاء والأمل — بعنايتك ، ولا قطعك

(١) المقابسات ١١٦

(٢) البصائر والنخائر ٤

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٤/٢

من عادة الإحسان إليهم ، ولا تكتفى طرفك عن الرقة لهم ، ولا زهدك في اسطناع
حالهم واطلهم ، ولا رغب بك عن قبول حقهم لبعض باطلهم ، ولا تسقل
عليك إدناء قريبهم وبعيدهم ، وإنالة مستحقهم وغير مستحقهم^(١).

— ٩ —

يكثر من الفصل بين أجزاء الجملّة الواحدة بجمل مترضة ، للدعاء ولغير الدعاء ،
بعضها قصير وبعضها طويل .

فمن الجمل المترضة القصار الدائمية قوله :

فقال — أدام الله دولته ، وبسط لديه نعمته — قدّم هذا الفن على غيره^(٢) .
وقوله : قلت لى — أدام الله تعالى توفيقك فى كل قول وفعل ، وفى كل رأى .
ونظر — إنك تعلم^(٣) ...

ومن الجمل المترضة القصار التى ليست للدعاء قوله :

قلت : أيها الوزير ، ما أعرف اليوم ببغداد — وهى الرقة الفسيحة الجامعة ،
والعرصة العريضة الفاصّة — إنسانا أشكر لك ، وأحسن ثناء عليك ، منه^(٤)

ومن الجمل المترضة الطوال قوله :

لما مات المراعى — وكان قدوة فى النحو ، وعلما فى الأدب كبيرا ، مع حدائه
سنه ، ورقة حاله ، وإن قلت لى ما رأيت فى الأحداث مثله كان كذلك —
استرحم أبو سعيد السيراف واستمبر^(٥) .

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢/١

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٦٠/٢

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٣/١

(٤) الإمتاع والمؤانسة ٢٩/١

(٥) معجم الأدباء ١٠٢/١٨

— ١١٧ —

— ١٠ —

أكثر من اجل الدعائية ، وخاصة فيما بحث به إلى الوزراء ، أو راسلهم به ،
وفي ذكره للذين يجلبهم كآبى سعيد السيراى .

كقوله لأبى الوفاء المهندس :

أيها الشيخ — أطال الله يدك فى الخيرات ، وزاد فى همتك رغبة فى اصطناع
المسكرومات ، وأجراك على أحسن العادات ، فى تقديم طلاب العلم وأهل
البيوتات — قد فرغت فى الجزء الأول على مارسمت فى القيام به^(١).

وقوله فى مقدمة المقابسات :

أطال الله حياتك ، وأعز قدرك ، وأكرم مثواك ، وقرن النجح بسميك ،
وضاعف منأحه قبلك ، وأدامها لك ، وذب عنها ما يكدرها عليك^(٢) .

— ١١ —

برع أبو حيان فى تنعيم الوقع الموسيقى للجمل ، بتقسيمها إلى فقرات فصار ،
متناسبة الطول ، يكثر فيها الازدواج ، ليكون أثرها على السمع وفى النفس
أشبه بالشعر .

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/٢

(٢) المقابسات ١١٧ .

كقوله :

اللهم إني أسألكُ جدا مقرونا بالتوفيق ، وعلما بريننا من الجهل ، وعملا
تحريرا من الخذل ، وقولا مُوشِّحا بالصواب ، وحالا دائرة مع الحق ، وفطنة
عقل مبصرة في سلامة صدر ، وراحة جسم راجعة إلى روح بال ، وسكون نفس
موصولا بثبات يقين ، وصحة حجة بميدة من مرضٍ شبيهة ، حتى تكون فايق
في هذه الدار مقصودة بالأمثل فالأمثل ، وعاقبتى محمودة بالأفضل فالأفضل ،
من حياة طيبة أنت الواعدُ بها ، ووعدك الحق ، ونعيمٍ دائم أنت المبلغ إليه .

اللهم فلا تخيب رجاء هو مُتوسطُ بك ، ولا تُصنِفِر كُفّا هي ممدودة ،
إليك ، ولا تُذل نفسا هي عزيزة بعرفتك ، ولا تسلب عقلا هو مستضىء بنور
هدايتك ، ولا تُقْذِر عينا فتسحبها بنعمتك ، ولا تُخْزِر أسانا عودته الثناء
عليك (١) .

وقوله :

ليس كل قائل يَسْلَمُ ، ولا كل سامع يُنصف ، ولا كل متوسط يُمنّح .
ولا كل قادم يفسح له في المجلس عند القدوم (٢) .

وهو يسجع ، لكن سجعهم ليس كثيرا ، وليس مطردا ، فهو لا يطأني على

(١) البصائر والذخائر ٣

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١/٢

ترسله ، بل لا يقاربه أو يساويه حتى يسلكه في عداد السجّاعين ، إلا في كتابه
الإشارات الإلهية .

وقد كان يسجع في تعبيره عن عاطفته ، وفي مواضع لا عاطفة فيها ، لأنه
وجد في الجمل المزدوجة والجمل المسجوعة نفها يطرب له ، وصياغة تكفل لتعبيره
القوة والقبول والذبوع .

وسجّعه كله قصير الفقرات ، متناسب القصّر ، مسوق في مهارة ولباقة ،
لا تشمر القارئ بأنه تممده أو اصطفمه ، ولا شيء فيه من إهمال المعنى أو
الطنيان عليه .

وإذا ما سجع عاد إلى الترسل وانطلق ، أوعاد إلى السجع ثم انطلق .
من سجّعه قوله .

« أما السّلاّمى ^(١) فهو حلو الكلام ، مُتّسق النظام ، كأنما يبيّن عن
نفر النعام . خفي السرقة ، لطيف الأخذ ، واسع المذهب ، لطيف المفارص ،
جميل الملابس » ^(٢) .

وقوله :

اللفم اكفنا من اللسان فلتته ، ومن الهوى فتنه ، ومن الشر خطرته ،
ومن الرأى غلطته ، ومن الظن خبطته ، ومن الطبع سورته ، ومن الأمر
روعته ، ومن العدو سطوته .

وجنبنا مائدة الحق ، ومجانبة الصدق ، وشراسة الخساق ، ومذمة الخلق ،

(١) شاعر عربي من أهل العراق . مدح صاحب ابن عباد وعضد الدولة البويهى

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١٣٤/١

والقِحةَ بالعلم ، والسَّهتَ بالجهل ، والاستعانة باللاجاج ، والإخلاد إلى الماجة ،
حتى نوحك بسرار سليمة من الشرك ، ونقدس لك بالسنة نقية من الهُجُر ،
ونتوجه إليك بقلوب صافية من الدغل ، ونعبدك عبادة برّية من الرياء ، خالصة
باليقين ، ونستجيب لك في كل سهل وعسير ، ونستريح إليك من كل قليل
وكثير ، ونحتمل فيك الأذى من كل صغير وكبير^(١).

ومن سجمه المذم المتصل على قافية واحدة قوله في الإشارات الإلهية :
أنفاسي متحرقة بالحسرات ، ودموعي متفرقة بين النمرات والزفرات ،
وكبدى مشتتة على المناظر والهيئات ، ويقظتى جارية على الرسوم والمعدات ،
وأحلامى عارية من كل ما له حاصل وثبات ، ونفسى رهينة بالسيئات ، مفتونة
بالسوائح والخطرات ، مغبونة عن الحسنات والصالحات .

الجهات دونى مُنْسَدَّة ، والوجوه أمامى مسوَّدة ، إن قلت ، قيل : هذا
ذور وبهتان ، وإن أشرت ، قيل : هذا بور وعدوان ، وإن سكنت ، قيل : هذا
سهو ونسيان^(٢) .

ومن ترسله قوله :

وقد أحصينا — ونحن جماعة في السكْرخ — أربعائة وستين جارية
في الجانبين ، ومائة وعشرين حرة ، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور، يجمعون
بين الحذق والحسن والظرف والعشرة .

هذا سوى من كنا لا نَظْفَرُ به ، ولا نصل إليه ، لمزته وحرسه ورقبائه ،
وسوى ما كنا نسسمه بمن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشيط في وقت ،

(١) المقاسات ١١٦ .

(٢) الإشارات الإلهية ٢١٤

— ١٢١ —

أو يُحِلُّ في حال ، وخلع المِندار في هوَّى قد حالقه وأضناه . وترنُّم وأوقع ،
وهز رأسه ، وصعد أنفاسه ، وأطرب جُلَّاسه ، واستكتمهم حاله ، وكشف
عندهم حِجابه ، وادهى الثقة بهم ، والاستقامة إلى حفاظهم^(١) . »

— ١٣ —

وهو يميل كثيرا إلى التضاد ليزيد الفكرة قوة ووضوحا ، لا ليتلاعب باللفظ.
كقوله : أما ترى ضيعتي في تحفظي ؟ أما ترى رقدتي في تيقظي ؟ أما ترى
غصتي في إساعتي ؟

أما ترى ضلالي في اهتدائي ؟ أما ترى رشدي في غيبي ؟ أما ترى عبي في بلاغتي ؟
أما ترى ضمني في قوتي ؟ أما ترى عجزى في قدرتي ؟ أما ترى غيبتى
في حضوري ؟^(٢)

— ١٤ —

ولقد أكثر أبو حيان من إيراد الشعر والحكم والأمثال في غصون كتابته ،
وإن كان لم يُحِلَّ الشعر ويقبس معانيه وبمض ألفاظه ، كما فعل كثير من كتاب
عصره ، بل كان يذكره منفصلا مستقلا ، لأن له صلة بالموضوع الذي يمرض له .

(١) الإمتاع والمؤانسة ١٨٣/٢

(٢) الإشارات الإلهية ١٠٤

موازنة بين أبي حيان وكتاب عصره

كان القرن الرابع — كما قدمنا في وصف الحياة العلمية والأدبية — غنيا
بالكتاب ، على منازع شتى .

وإذا كان من المسير أن تطلق على نثرهم جميعا أوصاف عامة تستوعبه ،
وأن توجه إليه أحكام كلية تشملها ، فإنه من المستطاع أن يوسم بعلامات تنطبق
على جلته ، وتصير كأنها خصائص لا أكثره أو أغلبه .

وعلى هذا الأساس نوازن بين أبي حيان وكتاب عصره ، موازنة قائمة على
التشابه ، ووجوه التخالف .

وجوه التشابه

— ١ —

طوَّع الكتاب النثر للتعبير عن المعاني العاطفية التي كانت مجالاً للشعر وحده ،
كالمدح والهجاء والوصف ، وكانت وسيلتهم إلى ذلك تقسيم الجمل ، والازدواج
والسجع والخيال والمحسنات ، حتى صار نثرهم شعرا مفتورا .
وأبو حيان يشبههم في هذا ، كما بينا في خصائصه الفكرية والفنية .

— ٢ —

سجل بعضهم الصراع الجنسي بين العرب والشعوبية ، والنزاع المذهبي بين
أرباب النحل والمذاهب والآراء ، والخلاف العلمي بين العلماء ، كدفاع بديع الزمان

— ١٢٣ —

المهمداني عن العرب ، وردده على الفرس ، ورد خصومه عليه ، وكلناظرة بين البديع والخوازمي التي سجلها البديع .

وقد جرى أبو حيان في هذا المضمار جريا لم يُلحَق فيه ، كما بينا في تحليل كتبه ، وفي دراسة خصائصه الفكرية والفنية .

— ٣ —

بعض كتاب القرن الرابع أكتروا من الازدواج ، وراوحوا بينه وبين السجع ، كابن العميد والباقلاني والشريف الرضي .

وفد كان أبو حيان يستعمل الازدواج ، لكن استعماله له لم يَطْنَحْ على ترسله ، كما عرفنا في أسلوبه .

— ٤ —

أكتروا من الجمل الدعائية ، وإن كان الجاحظ قد سبق إلى ذلك . كقول ابن العميد في كتاب لمضد الدولة : « أطال الله بقاء الأمير الأجل عضد الدولة ، بإمام عزه وتأييده ، وعلوه وتمهيده ، وبسظته وتوطيده ، وظاهر له من كل خير مزیده » .

وقد أشبههم أبو حيان ، فأكثر من مثل هذا الدعاء ، كما مرَّ بنا في دراسة أسلوبه .

وجوه التخالف

- ١ -

امتاز أبو حيان من معاصريه الكتاب بثقافته الواسعة التي يسرت له أن ينفذ أدبه بألوان من العلوم . فلم يكن أدبه مثل أدبهم تعبيرا صرفا عن عاطفته الفردية ، وإنما كان أدبه غنيا بثقافات شتى ، كما يبينها في تحليل كتيبه ، وفي دراسة خصائصه .

- ٢ -

مال بعضهم إلى الفكاهة ، موضوعا ، وتمييزا وطريقة ، كما فعل البديع في المقامة المضيرية والمقامة الحلوانية^(١) . وكالرسالة التي كتبها أبو الخطاب الصابي في التندر بحمل أهداء إليه صديقه^(٢) ، والرسالة التي عزي بها أبو إسحاق الصابي صديقا له في ثور^(٣) ، ورسائله في التطفيل التي أنشأها على لسان طفيل كان دائم الجبوت على مائدة معين الدولة بن بويه الديلمي : استجابة لاقتراح معين للدولة عليه أن ينشئها على نظام المهود الرسمية^(٤) .

أما أبو حيان فكان نزر الفكاهة ، إذ ليس من موضوعاته موضوع واحد فيك ،

(١) مقامات بديع الزمان ١١٤ ، ٢٢٣

(٢) زهر الآداب ٢ / ٢٣١

(٣) زهر الآداب ٤ / ١٠٢

(٤) صبيح الأعشى ١٤ / ٣٦٠

ولم يمزج بكتابه ضروريا من الفكاهة ، إلا بعض نوادر وملح ومجون كان يهتم بها بعض ليليه وأسماره مع ابن سعدان ، وإلا مجونا واحدا افتتح به ليلة من ليليه . وحتى نوادره هنا ليست بارعة كلها ، وليست من البواعث القوية على الضحك .

وتعليل ذلك سهل ، لأن الرجل كان رجل جِدٍّ لا عبث ولهو ، وكان مشغولا برزقه وحياته كما عرفنا في تاريخه ، وكان يعتقد أن العلم الجاد هو سُلُسه إلى الزُهْنِي والشهرة وعلو القدر ، لا الضحك والإضحاك . وفوق هذا كله ، كان مزاجه غير مُعَدٍّ للضحك والإضحاك ، كزاج الجاحظ مثلا .

— ٣ —

لعل أول ما يسترعى النظر من خصائص النثر في القرن الرابع الكلف بالسجع ، والتزام أكثر الكتاب له ، على أنه عماد في الكتابة ، وضرورة من ضرورات الإجابة ، ودلالة على المهارة .

والسجع بهذه الصورة يَدْعُ في النثر ، لأن الكتاب الذين سبقوا القرن الرابع لم يكونوا يَسْكَفون به هذا الكَلَف ، أو يلتزمون ذلك الالتزام .

وقد تمدى الولوع بالسجع النثر الأدبي إلى لغة التأليف ، كما نرى في (يتيمة الدهر) للشمالي ، وفي (اليميني) الذي ألفه العتبي في تاريخ يمين الدولة السلطان محمود الغزنوي .

على أن كتاب القرن الرابع كانوا في سجعهم على طرائق ثلاث : منهم من

— ١٢٦ —

كان يستعمله . ولا يكاد يخل به ، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي ،
وأبو الفرج المعروف بالبيناء .

ومنهم من كان يستعمله كثيرا ، ويتركه حيناً ، وهو أبو الفضل ابن
العميد .

وآخرون كانوا يستعملونه مرة ، ويرفضونه أخرى ، على حسب ما يحسون
من التيسير والسهولة ، والإكراه والتكلف^(١) .

ومن أشهر السجاعين في القرن الرابع بديع الزمان الهمذاني والصاحب
ابن عباد وابن نباتة والحوارزمي والنعماني والصابي .

أما أبو حيان فقد عرفناه ~~كثير~~ الترسل ، قليل السجع ، وعرفناه
لا يلبث أن يسجع حتى يتحرر وينطلق ، إلا في كتابه الإشارات الإلهية .

— ٤ —

وثمة طائفة لم تكلف بالسجع ، ولا بالازدراج ، وإنما كانت تمهر في تحرر
وترسل ، مثل الرزباني والأسفهاني وابن مسكويه وأحمد بن يوسف .

وقد كان أبو حيان من هذه الطائفة ، وإن كان أحرص منها على العناية
بالأسلوب ورئيته ، وتحليته ببعض السجع والازدواج .

(١) ابن خفاجة في مقدمة كتاب الخطب لابن نباتة ١٦ وقد ذهب إلى أن ابن العميد
كان يترك السجع ويتجنبه ، ولكن رسائله تنقض ذلك ، فلم يكن مترسلاً كما زعم
ابن خفاجة .

والغالب على جمهرة الكتاب أن يحلوا نثرهم الأدبي بألوان من الجنس والطباق ، كقول ابن العميد في الرسالة التي بعثها على لسان ركن الدولة البوسهي إلى الثائر ابن بلسكا ونداد خورشيد .

كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك وبأس منك ، وإقبال عليك وإعراض
هيك ، فإنك تُدِلُّ بسابق حرمة ، وتَمُتُّ بسالف خدمة ، أيسرها يوجب
رعاية ، وبقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ،
وتستبعمهما بآنفٍ خلاف وممصية ، وأدنى ذلك يحبط أعمالك ، ويسحق كل
ما يُرْمَى لك ^(١) ...

وقول بديع الزمان في المقامة الشيرازية :

حدثنا عيسى بن هشام قال : لما قَفَلْتُ من اليمن ، وهمتُ بالوطن ، ضمَّ
إلينا رفيقٌ رحله ، فترافقنا ثلاثة أيام حتى جَذَبَنِي نَجْدٌ ^(٢) ، والتقمه
وهْدٌ ^(٣) ، فصَمِدْتُ وَصُوبٌ ^(٤) ، وشرقت وغرب . فوالله لقد تركني فراقه ،
وأنا أشتاقه ، وغادرتني بَعْدَهُ أقالمي بُعْدَهُ ، وكنت فارقتُه ذابِئَةً وجمال
وهيئة وكِالٍ ^(٥) ...

وقول الخوارزمي في رسالة إلى نائب الوزير ابن عباد :

(١) يتيمة الدهر ١٤٥/٣

(٢) نجد : مرتفع من الأرض

(٣) وهدا : منخفض من الأرض

(٤) صمدت : سرت مرتفعا . صوب : سار منحذرا أو في اعتدال

(٥) مقامات بديع الزمان ٢١٩

« كتبت إلى الأستاذ معاتباً مرة ، ومستمتباً كربة ، فما وجدت للمتاب إعجاباً ، ولا قرأت عن الكتاب جواباً . وليت شعري ما الذي منعه من صلة لانهضه ، وتنفعني ؟ وعن تواضع لا يضمنه ، ويرفعني ؟ »

ولكن أباؤنا حيان كان مُقْبِلًا من الجناس والطباق ، حتى ليكاد يَخْسَفُ على القارئ ما في كتابته منهما ، وذلك لمهارته ، ولأنه لم يخضع المعنى لهما ، ولم يتكلفهما ، بل كان الجناس أو الطباق في نثره عملاً تعبيرياً مصدره النفس لا العقل والمنفعة .

فن جناسه قوله :

« وَمَنْ إِذَا وَقَفَ إِلَى جَانِبِي أَسْدَرَنِي بِصُنَانِهِ ، وَأَسْكُرَنِي بِنَسْتَنِهِ »^(١)
وقوله : قد تَفَلَّلَتْ صِفَاتٌ ، واضمحلت رِصْفَاتِي ، وفقدت شهواتي ولداتي ، ومنيت بموت أحبتي ولداتي »^(٢) .

وقوله :

فتراه عندهُ هذا المَذَرُ وأشباهه يتلوى ويتبسم ، وبطير قَرَحًا ويتقسم ، ويتهاك ويتهاك ، ويتقابل ويتمايل »^(٣) .

ومن طباقه قوله :

« وهو في كل ذلك يتشاكى ويتحايل ، ويَلْوِي رِدْقَهُ ، ويبتلِم رِيْقَهُ ، وَيَرْدُّ كَالْأَخْذِ ، ويأخذ كَالْتَمَسِّعِ ، ويعضب في عَرَضِ الرضا ، وَيَرْضَى في لبوس الغضب »^(٤) .

(١) الصداقة والصديق ٦

(٢) الإشارات الإلهية ٩٣

(٣) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٥٩

(٤) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٥٩

وقوله :

من لم ير أن عقل العالم الرشيد ، فوق عقل المتعلم البليد ، وأن رأى المجرب البصير ، مقدم على رأى الغمر الغرير ، فقد خسر حظه فى العاجل ، ولمله أيضاً يخنس حظه فى الآجل » (١) .

— ٦ —

تغالوا فى عبارات التعظيم والتبجيل والتفخيم ، وخاصة فى كتبهم للملوك والرؤساء وذوى السلطان ، وكنوا عن أسمائهم وألقابهم ، صونا لها من التصريح بها ، ورسموا لىكل طبقة نعمتا ودعاء .

أما أبو حيان فلم يفعل ذلك ، ولدينا مسامراته التى سامر بها الوزير ابن سمدان ، وليس فيها هذا الإغراق فى الإعظام والإجلال . بل إنه يحدثننا عن طلبه من ابن سمدان أن يخاطبه بالكاف والتاء ، للتخلص من ضيق الكفاية والتعريض ، وليتحدث فى غير تكاف أو تهيب أو حذر ، ويخبرنا أن ابن سمدان أجابه إلى طلبه (٢) .

وقد عرفناه فى مجلس ابن عباد جريئاً فى المقال ، غير خبير بمحاسبة الأمراء ، ومزادمة الكبراء (٣) .

(١) الإمتاع والمؤاساة ١ / ١

(٢) الإمتاع والمؤاساة ١ / ٢٠

(٣) راجع سلكه بابن عباد فى الجزء الأول

موازنة بين أبي حيان والجاحظ

١ - كان أبو حيان معجباً بالجاحظ أيما إعجاب ، وكان — كما حدثت —
حفيها بكتبه ، معجباً بطريقته (١) .

وقد أرجع عجز أبي الفضل بن العميد عن إدراكه للجاحظ ، إلى أن الجاحظ
موهوب ، وأنه لا يجارى ، في قوله :

سمعت ابن الجمل يقول : سمعت ابن ثوبة يقول : أول من أفسد السلام
أبو الفضل ، لأنه تخيل مذهب الجاحظ ، وظن أنه إن تبمه لحقه ، وإن تلام أدركه ،
فوقع بعيداً من الجاحظ ، قريباً من نفسه .

ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مُدَبَّرٌ بأشياء لا تلتقى عند كل إنسان ،
ولا تجتمع في صدر كل أحد : بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ
والمشق — الميل إلى الكتابة — والمنافسة والبلوغ ؟

وهذه مفاتيح قلما يملكها واحد ، وسواها مفااتي قلما ينفك منها واحد (٢) .
وقد عرفنا أنه ألف كتاباً كاملاً سماه تقريظ الجاحظ (٣) .

٢ - وهذا الإعجاب دفعه إلى محاكاة الجاحظ كثيراً ، فصار يشبهه إلى
حد بعيد ، وإن كان لم يشبهه تمام الشبه ، لأن له شخصيته ومواهبه وظروفه .
وسنوازن بينهما موازنة مفصلة تبين أوجه التشابه وأوجه الاختلاف .

(١) البصائر والذخائر ٥ والإمتاع والمؤانسة ١/٥ ومجمع الأدباء ١٦/٩٥

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١/٦٦

(٣) مجمع الأدباء ٢٧/٣ و ١٦/٩٥ — ٢ ١

وقبل أن نمرض هذه الموازنة ، نذكر أن الأستاذ أحمد أمين فضل أبا حيان على الجاحظ في ناحيتين : جزالة اللفظ ، وسمة العلم ، وفضل الجاحظ على أبي حيان في طرافة التصوير وجمال المرض ، في قوله :

« ولئن قالوا عن أبي حيان إنه هو الجاحظ الثاني ، ففي رأي أن الجاحظ — وإن كان أكثر تشمبا وأكثر انطلاقا — فأبو حيان أجزل لفظا ، وأوسع علما ، لأن الجاحظ كان مسجل القرن الثاني ، وفي القرن الثاني بدأت نشأة العلوم ، وأبو حيان مسجل القرن الرابع ، وقد نضجت العلوم ، وشتان بين علم ناشئ ، وعلم ناضج .

قد يمتاز الجاحظ بحسن التصوير ، وحسن المرض ، والقدرة على خلق شيء من لاشيء . أما أبو حيان فأوسع أفقا ، وأغزر مادة .

إن كان الجاحظ ممثليا فهو معتزلي فقط ، أما أبو حيان فقد كان نحويا ، وكان فيلسوفا ، وكان أديبا ، وكان متصوفا .

بدأ الجاحظ والعلم في مستهله فأعجب الناس وأطرفهم ، وجاء أبو حيان والعلم على أتمه فروى لهم ما وصل إليه .

وليس من شك في أن مجهود العالم الإسلامي في قرنين ونصف في كل فروع العلم كان مجهودا هائلا ، نهل منه أبو حيان ، ولم ينهل منه الجاحظ .

فأبو حيان في الحقيقة يمثل العلم العربي إلى أين وصل ؟

والجاحظ يمثل كيف بدأ ؟

ولسكن حظ الجاحظ كان أحسن من حظ أبي حيان ، فكبرٌ ومُجِد ،

— ١٣٢ —

وأبو حيان نسي وأهمل، فما أحرانا ألا نسكرن مع الزمان عليه ، أو ألا نفلد
كثيرا من الناس في إهماله .

وفرق آخر هو أن الجاحظ لما حسن حفظه ضحكك ، فاشتهر بالفسكاهة
الحلوة والنادرة اللطيفة .

وأبو حيان لما ساء حفظه بكى ، والناس عادة يضحكون مع الضاحك ، وهربون
من الباكي ، فقد أكثر أبو حيان من الشكوى حتى مل منه مسكويه وقرعه^(١) .

٣ — وسنبين في موازتنا بين الرجلين أن الأستاذ أحمد أمين لم يفصل القول
فيا ذهب إليه .

أما هذه الموازنة فقامت على ناحيتين : ناحية التشابه ، وناحية التخالف .

ومره التسليم

— ١ —

كلأها سجل معارف عصره ، ونقل ما كان قبله ، مما قرأ أو سمع أو روى .
وعلاما عبر عن معاني غيره بأسلوبه في الأكثر ، فالمعاني لغيره ، والقصص
لسواه ، والخبر قديم أو معروف ، لكنه يصوغه صياغة جديدة ، تشرق فيها
خصائصه ، وتتمع ألوانه ، فيصير جديدا أو كالجديد ، وبصير حريسا بأن
ينسب إليه .

وكل منهما استقى من ينابيع الثقافة المتنوعة في عصره ، عربية ودينية ومرتجة

(١) مقدمة البصائر والنخائر

عن اليونان والفرس والهند ، على قدر ما سمحت ظروفه ، واتسع إساكنه ،
ويُسّر جهده .

ولكن أبا حيان كان أرحب ميدانا من الجاحظ ، لأنه انتفع بما جدد بعد
الجاحظ ، فقد توفي الجاحظ سنة ٢٥٥ وتوفي أبو حيان سنة ٤١٤ هـ .

وفي هذه الفترة التي فصّلت بين وفاة الجاحظ ووفاة أبي حيان كان العرب
قد ازدادوا إقبالا على الترجمة من الأمم المختلفة ، وأعادوا بعض ما ترجم أسلافهم
من قبل ؛ وصحّحوه . وكانت خطواتهم في ميادين العلم والأدب قد تراجعت
وتلاحقت واتسع مداها .

وهذا هو السبب في أن أبا حيان أكثر من الجاحظ ذكرا للعلماء والفلاسفة ،
وأكثر نقلا عن فلاسفة اليونان بنوع خاص ، وأشد ولوفا بالبحث والاستقصاء ،
كما بينا في تحليل كتبه ، وكاسنين في الختام .

— ٢ —

كلاما صيغ الأدب بالثقافة ، وعبر عن مسائل دقيقة في الفلسفة والنفس
والكلام وغيرها تعبيرا أدبيا كساها حلة من الجمال .

فالجاحظ تكلم في الحيوان مثلا ، وكتب فيه كتابا كاملا ، مزج فيه العلم
بالأدب .

وأبو حيان تكلم في أصناف الحيوان وطبائعها ، وكان كلامه مزيجا من العلم
ومن روعة التعبير ، وإن كان أقل من الجاحظ استطرادا إلى الشعر والملح .
كقول الجاحظ :

والمدهد متنن البدن ، وإن لم تجده ملطّخا بشيء من العذرة ، لأنه يبنى

بيته ، ويصنع أخوصه من الزبل ، وليس اقتنياته منه إلا على قدر رغبته وحاجته
في ألا يتخذ بيتا ولا أخوصا إلا منه ، فخامرته ذلك الذئب ، فعلق ببذنه ، وجرى
في أمراق أبويه ، إذ كان هذا الصنيع عاما في جنسه .

وتعترى هذه الشهوة الذئبان ، حتى إنها لو رأت عسلا وقذرا لسكانت إلى
القذر أسرع .

قال أبو نواس في هجاء جعفر بن يحيى البرمكي :

قفأ خلف وجهه قد أطيل كأنه قفا مالك يُقْسِمُ الموم على تَبْسُقِ
وأعظم زهوا من ذباب على خرا وأبخل من كلب عقور على عرق^(١)
وقوله :

السَّنُونُ يعرف ربة المنزل ، ويألف فرخ الحمام ، ويمابث فراريج الدار ،
إن سرق ورُبط شهرا عاد عند انفلاته ، وأحلل رباطه .

والهرة تعرف ولدها وإن صار مثلها ، وإن أطمعت شيئا حملته إليه ، وآثرته
به . وربما ألقى إليها الشيء فتدنوا لتأكله ، ويقبل ولدها فتمسك عنه ، وترمضه
له ، وربما طرّج لها الشيء وولدها غائب عنها — ولها خروب من النعم ، وأشكال
من الصياح — فتصيح خربا من الصياح يعرف أهل الدار أنه صياح الدهاء ،
لا غير ذلك . ويقال أبرُّ من هرة^(٢) .

(١) الحيوان ٢٣٨/١ ببق : (سراع

العرق : العظم بالضمه .

(٢) الحيوان ٢٦٣/٢

وقول أبي حيان في الإمتاع والمؤانسة^(١) :

« إن أخلاق أصناف الحيوان الكثيرة مؤتلفة في نوع الإنسان ، وذلك أن الإنسان صنفوا الجنس الذي هو الحيوان ، والحيوان كعدر النوع الذي هو الإنسان ، والإنسان صنفوا الشخص الذي هو واحد من النوع ، وما كان صنفوا ومصاصا بهذا النظر انتظم فيه من كل ضرب من الحيوان خلق وخلقان وأكثر ... كالكسوف الذي في طباع السبع والفأرة ، والثبات الذي في طباع الدئب ، والتحرز الذي في طباع الجاموس من بنات الليل ، والحذر الذي في طباع الخنزير ، والتقدم الذي في طباع الفيل أمام قطيعه كتمثلا بصاحب المقدمة ... ولهذا قال بعض الحكماء : خذ من الخنزير بكوره في الحوائج ، ومن الكلب نصيحته لأهله ، ومن الهرة لطيف نفسها عند المسألة .

وقالت الترك : ينبغي للقائد العظيم أن يكون فيه عشر خصال من ضروب الحيوان : سخاء الديك ، وتحمش الدجاجة ، ونجدة الأسد ، وحيلة الخنزير ، وروغان الثعلب ، وصبر الكلب ، وحراسة الكركي ، وحذر الغراب ، وغارة الدئب ...

الكلية تحمل وتبقى ستين يوما ويوما ، وهذا أطول ما يكون ، ولا تضع قبل أن يتم حملها ستين يوما ، فإن وضعت قبل ذلك فإنها لا تربي ، ولا يبقى لها ولد ...

كل ما كان من البيض مستطिला عهد الطرف فهو يفرخ الإناث ، وما كان مستديرا عريض الأطراف يفرخ الذكور ...

الطاوس يبيض خمساً وعشرين سنة ، وفي هذه المدة تنتهي ألوان ريشه .
ويبيض ببيضه ثلاثين يوماً .

قيل : وربما أكثر قليلاً . ويبيض في كل سنة مرة واحدة ، وعدد ببيضه اثنتا عشرة بيضة . ويلقى ريشه في زمن الخريف وبعده قليلاً ، وذلك حين يلقي الشجر ورقه ، فإذا بدأ أول الشجر ، وظهرت فروعه ، ونبت ورقه ، بدأ ريشه ينبت ...

إناث الكلاب تطمعت في كل سبعة أيام ، وتبول جالسة ، ومنها ما ترفع رجلها عند البول .

ذكور الكلاب ترفع أرجلها للبول إذا تمت لها من ولادتها ثمانية أشهر ، وبمضها في ستة أشهر ...

كلأما بصير بمدلول الكلمة ، وجرسها ، وموضعها الملائم لها ، اعتماداً على حسه اللغوي ، وذوقه المرفه ، وتمرسه بالتعبير ، وعلى العلم بدقائق اللغة ، وما يقتضيه المعنى والمقام .

وقد مثلنا لهذا من كتابة أبي حيان في دراسة خصائصه الفنية والفكرية أما من كتابة الحافظ فقله في وصف قاضي البصرة عبد الله بن سوار :
كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكماً قط ، ولا زِميتاً ولا ركيناً ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذي ضبط وملك .

كان يصلي الغداة في منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتى مجلسه ، فيحتبي ولا يتكئ ، فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل

حبوته ، ولا يحول رجلا على رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه ، حتى كأنه بناء
مبنى ، أو صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود
إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر ، ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال
كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى مجلسه ، بل كثيرا ما كان
يكون ذلك إذا بقي عليه شيء من قراءة اليهود والشروط والوفايق . ثم يصلى
العشاء وينصرف .

فالحق يقال : لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء ،
ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب .
كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها ، وفي صيفها وفي شتائها ،
وكان مع ذلك لا يحرك يده ، ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم ^(١) .
فانظر كيف وصف القاضي بكلمات دقيقة دالة وصفا مصورا لسكناته وهيئته
وجلسه .

- ٤ -

كلما حارب على هندسة الجمل وموسيقاها ، وتوازن الجمل بعضها مع
بعض .

فهما مما يكثران من الترسل ، لكن ترسلهما عذب ، لأن فيه تقسيما بين
الجمل واتساقا يجعل وقعها لطيفا على السمع .
وهما مما يكثران من الازدواج ، ويجنحان قليلا إلى السجع . لكن
ازدواجهما وسجعهما يبدو طبيعيا لا معاناة في اجتلابه ، ولا إهمال للمعنى
في طلابه .

وقد مثلنا للترسل والازدواج والسجع عند أبي حيان في خصائصه .

أما سجع الجاحظ فمثل قوله : « الحمد — أبقاك الله — داءٌ يَنهَكَ الجسد ،
ويُفسد الأَوَد ، علاجه عِسرٌ ، وصاحبه ضَجِيرٌ » ، وهو باب فامض ، وأمر
متعذر ، فإِظهار منه فلا يداوى ، وما بطن منه فداويه في عناء ، ولذلك قال
صلى الله عليه وسلم : دب إليكم داءُ الأمم من قبلهم : الحسد والبغضاء . . .
وهو قاطع كل رحم بين الأقرباء ، ومحدث التفرقة بين القرناء ، ومُكسِّح
الشر بين الخلطاء » (١) .

ومن ازدواج الجاحظ قوله :

عبتَ الكتاب ، ونعم الذخر والمقعدة ، ونعم المجلس والمُسعدة ، ونعم النشوة
والنزهة ، ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الأنيس لساعة الوحدة ، ونعم المعرفة
ببلاد الغربة ، ونعم القرين والذخيل ، ونعم الوزير والذليل . والكتاب
طاء مليء علما ، وظرف حُشى ظرفا ، وإلاء شعشعن مزاحا وجداً » (٢) .

ومن ترسله المزوج بالسجع والازدواج قوله :

« جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الخيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة
نسبا ، وبينك وبين الصدق سبباً ، وحبب إليك التثبت ، وزين في عينيك
الإنصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك
برد اليقين ، وطرده عنك ذل اليأس ، وعرفك ما في الباطل من الدلة ، وما في الجهل
من القلة » (٣) .

(١) رسالة الحاسد والمحسود ٢ — ٣ من مجموعة رسائل الجاحظ

(٢) الحيوان ٣٨/١

(٣) الحيوان ٣/١

وهما مما يجنحان إلى الإطناب .

ووسيلتهما إلى الإطناب التعبير بكلمات مترادفة ، أو ترديد بعض الكلمات والجل ، أو تشقيق معان عدة من معنى ، أو تكرير المعنى الواحد في عبارات مختلفة تخيل إلى القارىء أن لكل منها معنى خاصا ، فإذا تدبر وجد المعنى واحداً أو كالواحد .

وسبب هذه النزعة عندهما حرصهما على التوضيح ، ورغبتهما في التوكيد ، وقدرتهما على التوليد والبسط ، وراؤهما من اللغة .

ومن أمثله عند الجاحظ قوله :

ولو أن رجلا جلس على يندر - كدس - تمر فائق ، وعلى كدس كثرى منعت ، وعلى مائة قنسوز موصوف ، لم يكن أكله إلا على قدر استطرافه ، ولم يكن أكله إلا على قدر أكله إذا أتى بذلك في طبق نظيف ، مع خادم نظيف ، عليه منديل نظيف ^(١) .

ومن أمثلة توليد المعاني عند الجاحظ قوله في تهكمه بأحمد بن الوهاب :

فأنت إذ عرفت ذلك استرحت منا ، ورجوت أن نستريح منك . وكيف يعرف السبب من يجهل المسبب ؟ وكيف يعرف الوصل من يجهل الفصل ؟

وكيف يعرف الحجة من الشبهة ، والغدر من الحيلة ، والواجب من الممكن ، والمقول من الموهوم ، والمحال من الصحيح ، والأسرار المجهولة من ذوات

الدلائل الخفية ، وما يعلم مما لا يعلم ، وما يعلم باللفظ دون الإشارة ، وما
إلا بالإشارة دون اللفظ ، وما لا يعلم معقولا ولا يعلم مكينا ، مما يعلم مكينا ،
معتقدا ، وما المستغلق الذي لا يجوز أن يفارقه استغلاقه ، والمستبهم
لا يفارقه استبهامه^(١) . . .

ومن أمثله عند أبي حيان — على ما سبق في خصائصه — قوله في
إلى ابن العميد .

الهم هيء لى من أمرى رشدا ، ووفقنى لمرضاتك أبدا ، ولا تجعل الح
على رسدا .

أقول — وخير القول ما انعمد بالصواب ، وخير الصواب ما تضمن الع
وخير الصديق ما جلب النفع ، وخير النفع ما تعلق بالمزيد ، وخير المزيد ما يد
الشكر ، وخير الشكر ما بدا عن إخلاص ، وخير الإخلاص ما نشأ عن اتق
وخير الاتفاق ما صدر عن توفيق — لما رأيت شبابه هرما بالفقر ، وفقرى
بالقناعة ، وقناعته عجزا عن أهل التحصيل ، عدت إلى الزمان أطلب
مكانى به ، وموضى منه ، فرأيت طرفه نايبا ، وهنائه عن رضاي منثنيا^(٢) . .

ويتشابه السكاتبان الكبيران في الإكثار من اسم التفضيل إكثارا يسا
النظر ، سواء أكانت هناك موازنة ومفاضلة أم لم تسكن .
كقول الجاحظ في صفحة واحدة . « فن أسوأ حالا ، وأخر مكانا ، و

(١) رسالة التزييم والتدوير ٨٦ من مجموعة رسائل الجاحظ

(٢) معجم الأدباء ٣٧/١٥

من الحزم ، ممن كان حرا مالسكا لنفسه ، فسير نفسه عبدا مملوكا لغيره . . . وكلا كانت إذاعته لأسراره أكثر كان عدد مواليه أكثر ، وشقاؤه بخدمتهم أدوم . . . ولو أن أوزن الناس حلما ملك لسانه . . . ما قدر على أن يملك لحظ عينه ^(١) .

وكذلك فعل في رسالته فخر السودان على البيضان في صفحة واحدة ^(٢) ، ورسالة المهاد والمماش ^(٣) في نصف صفحة .

وشبيه بهذا قول أبي حيان :

ولولا كسلف النفس بالعلم ، وعجبتها للفائدة ، لكان الإضراب عنها أذبا عن العرض ، وامتنون لا قدر ، وأبعد من استدعاء الأئمة ، ممن لعله لو أتى بهذا المقدار لكان عندي عظيم المنة حقيقا بالشكر والمحمدة ^(٤) .

وقوله : ما أعرف إنسانا أشكر لك ، وأحسن ثناء عليك ، وأذهب في طريق العبودية معك ، منه ^(٥) . وقوله :

أبو سعيد أجمع لشمل العلم ، وأنظم لمذاهب العرب ، وأدخل في كل باب ، وأخرج من كل طريق ، وألزم للجادة الوسطى في الدين والخلق ، وأروى في الحديث ، وأفضى في الأحكام ، وأدق في الفتوى ، وأحضر بركة على المختلفة ، وأظهر أثرا في المقتبسة ^(٦) . . .

(١) رسالة كتمان السر وحفظ اللسان ٤٤

(٢) صفحة ٦٤

(٣) صفحة ١٣

(٤) المقابسات ١٢٤

(٥) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٢٩

(٦) الإمتاع والمؤانسة ١ / ١٢٩

وقوله :

فهمتُ جميع ما قلته لى بالأمس فهما بليغا . . . وأنا أعيدنه هاهنا بالقلم ،
حتى يكون اعترافى به أرسى وأثبتَّ ، وشهادتى على نفسى أقوى وأؤكد ،
ونسكولى عنه أبعد وأصعب ، وحكمك به لى وعلى أمضى وأنفذ^(١) .

— V —

ويتشابهان فى المبالغات الافتراضية فى مقام التهويل ، أو فى مقام التهوين .

كقول الجاحظ :

والله لو كنت ابتلعت مرار بابك ، وأبطلت ثمر الباطل ، ورددت القطائع
كلها ، ونقضت الشروط بأسرها ، ومسخت جميع الجوارى فى صورة أبى رملة ،
ورددت شطايط خلقك إلى جموعة أبى حنمة ، وكنت أول من سن يوم الرجال
فى النخاسين ، وفتح باب الظلم لأصحاب المظالم ، وحولت إليك عقل أبى دينار ،
وطبعت على بيان مانويه ، وأعنت على موت الممتصم ، وغضبت لمصرع الأمشين ،
واستعجبت لديك الأفرق ... لكان ما تركبى به سرقا ، ولكنت فى هذا
الباب متعمدا » .

وقول أبى حيان فى التمتع من ابن عباد وسخطه :

« حتى كأنى طمنت فى الفرن ، أرميت الكعبة بخرق الحيف ، أو عقرت
ناقة صالح ، أو قلت كان النظام مأبونا ، أو مات أبو هاشم فى بيت خمار ، أو كان
عباد معلما صيبان » .

— ١٤٣ —

— ٨ —

على أنهما يتشابهان في مظاهر أخرى ، كالإكثار من الجمل الدعائية ، واستعمال
الجمل المترضة ، كما سبق في خصائص أبي حيان .
وكقول الجاحظ : تولاك الله بحفظه ، وأعانك على شكره ، ووفقك لطاعته ،
وجعلك من الفائزين برحمته .

وقوله : ذكرت — حفظك الله — أنك قرأت كتابي^(١) .

وجوه الاختلاف

وإذا كان أبو حيان قد أعجب بالجاحظ ، وقرظه ، وحاكاه عامداً أو غير عامد ،
فإنه لم يكن صورة مكررة من الجاحظ ، لأن له مزاجه الخاص ، ونزعاته المستقلة ،
وخصائصه المنفردة ، فلا بد أن تظهر في كتابته ، ولأن للجاحظ جوانبه الخاصة
التي انفرد بها ، وكانت من آثار مزاجه وملابساته .

ومن هنا اختلف الكاتبان الكبيران في أمور عدة :

— ٩ —

أبو حيان أبرع من الجاحظ في تسجيل المفاظرات والمحاورات بقلمه وفنه ،

فطالما نسج مجالس المناظرة نسجا تفرد به ، ونقل إلينا صورتها وحقيقتها ، مستمينا بمقدرته على التصوير ، وبقوة حافظته ، وبانطلاق خياله ، وبتمدد الشخصيات . وقد صاغ ذلك بقلمه ، غير متمال إذا تحدث بلسان أديب ، وغير نازل إذا تحدث بلسان غير أديب .

أما الجاحظ فقد برع في تصوير البخلاء ، والسخرية منهم . وهو إلى ذلك يراوح في أسلوبه بين حديثه على لسان الخاصة وحديثه على لسان العامة . ولهذا أوصى بأن تنقل ملح العامة وأشباههم والأعراب وغيرهم بلفتها الأولى وإن خالفت الإعراب .

— ٢ —

الفكاهة مهيدان رحب من ميادين الجاحظ ، اشتهر بها ، وبرع فيها . ويتصل بالفكاهة ألوان آخر قريبة منها كالتهميم والسخرية^(١) . وترجع براعة الجاحظ في الفكاهة إلى نفسه المرحّة ، ومزاجه الضاحك ، ومقدرته على التمييز والتلون ، وقدرته على النقد ، وتجسيم الصغير وتصغير الجسيم ، وهذه النزعة جليلة في كتابه البخلاء ، وفي رسالة الترييح والتدوير . ومن تهكم الجاحظ بنفسه رغبة في الفكاهة والتعكيه ، وصفه لمركة بينه وبين الذباب ، قال : فأما الذي أصابني من الدُّبَّان فإنّي خرجت أمشي في (المبارك) أريد دَيْرَ الربيع ، ولم أقدر على دابة ، فحربت في عشب أرشب — ملتف — ونبات ملتف ، كثير الذبان ، فسقط ذباب من تلك الذبان على أنفي ، فطرده .

(١) راجع كتابي (الفكاهة في الأدب) الجزء الأول والثاني

فلم أقدر . فتحول إلى عيني ، فطردته . فسار إلى مُوق عيني — طرفها الذي يلي الأنف — ، فزدت في تحريك يدي ، فتنحى عني بقدر شدة حركتي وذَّبتني عن عيني .

— ولذبان السكلاء والرياض والغياض وثَّع ليس لغيرها — ثم عاد إلى فعدت إليه ، ثم عاد إلى ، فعدت بأشد من ذلك . فلما عاد استعملت كمي ، فذبيت به عن وجهي . ثم عاد ، وأنا في ذلك أُنخب السير ، أو مل بسرعتي انقطاعه عني .

فلما عاد نزلت طيلسانى من عنقي — لباس يشبه العباءة — فذبيت به عني بدل كمي . فلما عاود ولم أجد له حيلة استعملت العَدْوَ ، فمَدَوْتُ منه شوطاً تاماً لم أتسكف مثله منذ كنت صبياً .

فتلقانى الأندلسى ، فقال لى : مالك يا أبا هُبان ؟ هل من حادثة ؟ قلت : نعم ، أكبر الحوادث ، أريد أن أخرج من موضع للذبان ، على فيه سلطان . فضحك حتى جلس ، وانقطع الذبان عني ، وما صدقت بانقطاعه ، حتى تباعد جداً^(١) . أما أبو حيان فلم يكن من رجال هذا الميدان ، لأن حياته كانت مملوءة بالترسُّت والعبوس والتصوف والحنق ، ولأنه كان أقل من الجاحظ قدرة على التصوير السافر اللاذع .

ولم أجد له من هذا الضرب إلا بمض ملح ومجون كان يختم بها بمض أسماؤه مع ابن سمدان ، وألوانا من المجون الصُّراح سامره بها في إحدى لياليه . على أن الملح التى ذكرها مطبوعة بطابع الفتور ، فلا تبعث على الضحك كما تبعث ملح الجاحظ ، وكما تبضحك الصور التى رسمها للبخلاء بقلمه ، أو صور بها بعض الأشخاص ، أو صور بها نفسه .

وإذا كان أبو حيان قد هجا المصاحب ابن عباد وتهكم به ، فإن تهكمه كان
ألصق بالهجاء الصريح المر ، وأقرب إليه ، من التعميرض والمواربة والذليل المستور
وهذه حادثة من حوادث أبي حيان ، ذكرها بقله ، ولو أن الجاحظ هو الذى
تناولها لشقق منها ألوانا من الدعابة والسخرية .

قال أبو حيان فى كتاب المحاضرات :

قصدت أنا والنصيبى رجلا من أبناء النعم ، والموصوفين بالسكرم ، لا يرد
سائله ، ولا يُخَيَّبُ آمليه ، والألسن متفقة على جوده وتَطَوُّله ، والعيون
شاخصة إلى عطاياه وفضله ، له فى السنة مباركة كثيرة على أهل العلم وأهل
البيوتات ، ومن قعد به الزمان ، وجفاه الإخوان ، فلم تصادفه فى منزله .

وقصدناه ثانيا ، فزِعْنا من الدخول إليه .

وقصدناه ثالثا فذكر أنه ركب .

وقصدناه رابعا ، فقليل هو فى الحمام .

وقصدناه خامسا ، فقليل : هو نائم .

وقصدناه سادسا ، فقليل : عنده صاحب البريد ، وهو مشغول معه بمُسْتَهْم .

وقصدناه سابعا ، فذكر أنه رسم ألا يؤذن لأحد .

وقصدناه ثامنا ، فذكر أنه يأكل ، ولا يجوز الدخول إليه بوجه
ولا سبب .

وقصدناه تاسعا ، فذكر أن أحد أولاده سقط من الدرجة ، وهو مشغول
به عند رأسه ما يفارقه .

وقصدناه العاشر ، فذكر أنه مستعد لشرب الدواء .

وقصدناه الحادى عشر ، فذكر أنه تناول الدواء من يومين ، وما عمل عملا ،
وقد فوّاه اليوم بما يحرك الطبيعة .

وقصدناه الثانى عشر ، فقيل : إلى الآن كان جالسا ، ونهض فى هذه
الساعة ، ودخل إلى الحجرة .

وقصدناه الثالث عشر ، فقيل : دُعِى إلى الدار لهم .

وقصدناه الرابع عشر ، فألفيناه فى الطريق يمضى إلى دار الإمارة .

وقصدناه الخامس عشر ، فسَّهَّل لنا الإذن .

ودخلنا فى غمار الناس ، والداس على طبقاتهم حلوس ، وجماعة قيام
يرتبون الناس ، ويَحْضِدُونهم ، وقد اتفق له عزاء ، وشُفِلَ بغيرنا ، وبقينا
فى سورة من احتقان البول والجوع والعطش ، وما أَقْنَا فى جملة من يُقام .

فقال لى النصيبى : هذا اليوم الذى قد ظفرنا به ، وتمكنا من دخول داره .
حسارَ عظيم المصيبة علينا . ليس لنا ، إلا مهاجرة بابه ، والإعراض عنه ، وقع
النفس الدنية بالطمع فى غيره .

فقلت له : قد تعبنا وتَبَدَّلْنَا على بابه ، والأسبابُ التى قد اتفقتُ فُتِعتُ
من رؤيته كانت هذرا واضحا ، ويتَّفَقُ مثلُ هذا . فإذا انقضت أيام التمزية
قصدناه ، وربما نلنا من جهته ما نأمله ..

فقصدناه بعد ذلك أكثر من عشرين مرة ، وكلما اتفق فيها رؤيته
بوخطابه ، حتى جَبَلَّ النصيبى ، فقال : لو علمت أن دار الفردوس ،

والحصولَ عنده الخلودُ فيها ، وكلامه رضا الله ، تمالى وفوزُ الأبد ، لما قصدته
بعد ذلك .

وأنشأ يقول :

طلبُ الكريمِ نَدَى يدِ المنكودِ كالغيثِ يُسْتَشْتَقِي من الجلودِ
فاقزع إلى عز الفراغِ ولُذْ به إن السؤال يريد وَجْهَ حديدِ
فأجبتُه أنا وعيناي بالدموع تترقق ، لما بان لي من حُرْفَتِي ، وُنبُو
الدهر بي ، وضياح سعي ، وخيبة أمل ، في كل من أرتجيه لِيْلِمَ أوْهُمْ
أو حادثة أو نائبة :

دنيا دنت من عاجز وتباعدت عن كل ذى لبٍّ له خَطَرُ
رَسَلْتِ على أربابها حتى إذا وصلتِ إلى أصابها الحَصَرُ^(١)

سجل الجاحظ كثيرا من معارف عصره ، ودون أبو حيان كثيرا من
علوم عصره . لكن المعلوم كانت في عصر أبي حيان أكثر سعة وتنوعا .
ومن هنا جاء أدب أبي حيان أغزر ثقافة .

الجاحظ قدير على الجدل ، وإبطال الحق ، وإحقاق الباطل ، وتزيين القبيح ،
وتقبيح الحسن ، بما يستخدم من مقدمات منطقية ، وأدله خطابية ، وتمويه
ماهر ، في تأييد دعوى ، أو إثبات قضية ، أو نقض فكرة .

لهذا كان الجدل من خصائصه ، وكان قديرا على التحول ، قديرا على التنقل .

ومن هنا كان كثيرا ما يدافع عن آراء لا يدين بها ثم ينقضها ، ولهذا أكثر تناقضه .

فهو يؤيد العثمانية على الرفضة ، ثم يؤيد الزيدية على العثمانية وعلى أهل السنة ، ويفضل عليا مرة ، ويؤخره مرة .

وهو — في غير السياسة — يفضل السودان على البيض ، ويمدح الكتاب^(١) ، ويذمهم^(٢) وهكذا .

أما أبو حيان فكان كاتباً ذا عقيدة ، وكان لا يحسن من الجدل ما أحسن الجاحظ ، ولم يزعج بقلمه في خصومات سياسية ، ولم يمدح شيئاً ويذمه في الوقت نفسه .

وإذا كان قد مدح ابن العميد أولاً ثم هجاء ، ومدح مسكويه ثم ذمه ، كما قلنا في أخلاقه وفي صلاته ، فإن هذا ضرب آخر غير ما عرفنا عند الجاحظ . فأبو حيان رضي ومدح ، وغضب فذم ، أو رضي فقال خير ما عرف ، وسخط فقال شر ما عرف . أما الجاحظ فقد مدح وذم حيث لارضا ولا سخط ، وإذا هو نوع من افتنائه وسيطرة الجدل على نفسه ، كمدحه العروض وذمه ، ومدحه جمع الكتب في مجلدات ، وذمه لجمعها في مجلدات^(٣) .

(١) البيان والتبيين ٤ / ٢٤

(٢) رسالة ذم الكتاب ٤٤

(٣) رسالة الجلد والمجلد

الجاحظ ، في أكثر كتبه - مكث من الاستشهاد بالشعر والحكم والأمثال ، ومكث من الطرائف الأدبية بمائة .

وأبو حيان - في أكثر كتبه - مُقِلٌّ من هذا ، ولم يكثر إلا في كتاب الصداقة والصديق .

ولعل سبب ذلك أن الجاحظ كان مشرباً بحب الأدب أولاً والعلم ثانياً ، واستطاع أن يزاوج بينهما ، أما أبو حيان فكان أجنح إلى العلم منه إلى الأدب .

وربما كان سبب ذلك أيضاً أن الجاحظ كان شديد الميل إلى الاستطراد والتدوين كما قدمنا ، أما أبو حيان فلم يكن الاستطراد سمة من سمات كتابته . وهذا واضح في كتبهما جميعاً .

والجاحظ كلف بالاستطراد ، يخرج من فكرة إلى أخرى ، ومن موضوع إلى موضوع أو موضوعات ، ثم يعود إلى الأول بعد قليل أو كثير من السطور أو الصفحات ، وهذا لوفرة علمه ، ورغبته في أن يفيد قارئه ، ويجدد نشاطه . وإن كان هذا عيباً في التأليف ، لأنه ضرب من الخلط والتهویش وتقطيع الأفكار . أما أبو حيان فلم يكن يستطرد هذا الاستطراد أو شبهه ، وإنما كان ينساقه في الموضوع الواحد أو الفكرة الواحدة حتى يفرغ منها .

إنتاج الجاحظ أكثر كماً ، وأضعف قدراً ، وأفسح دائرة ، وأعظم تنوعاً من إنتاج أبي حيان ، لأن الجاحظ نحو ٣٦٠ ^(١) كتاباً ورسالة ، وقد أثبت منها ياقوت ١٢٨ ^(٢) ، بعضها مطبوع في مجلدات كالبيان والتبيين ، والحيوان ، والبخل ، وبعضها رسائل طوال أو قصار .

أما أبو حيان فكان إنتاجه أقل ، وهو إذا قيس بإنتاج الجاحظ لا يساويه ولا يدانيه .

ولقد كان المتوقع فقير هذا ، لأن عصر أبي حيان كان أعظم ملاءمة للإنتاج ، لكن حياة كل من الرجلين ومزاجه وحظه كانت الباعث على هذه التفرقة .

فقد كان الجاحظ مرحاً ، وكان محظوظاً ، وكان معتمداً على علمه وحده على أنه غاية وسيلة في الوقت نفسه ، وكانت كتبه رائجة أعظم رواج في عهده ، فشجعه هذا كله على التأليف .

ففي تاريخه ما يدل على رواجها في حياته . من ذلك أنه قيل لأبي هفان ، لم لا تهجو الجاحظ ، وقد ندد بك ، وأخذ يبخنقك ؟ فقال : أمثلي يُخدَم عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة في أرنبه أنق ، لما أمست إلا بالصين شهرة ^(٣) .

أما أبو حيان فكان ضائق الصدر ، منقبض النفس ، بائساً يائساً ، وكان في أكثر عمره يريد العلم وسيلة فحسب ، وسيلة إلى المال والشهرة والمجد ، كما

(١) مقدمة الحيوان ٥ (٢) معجم الأدباء ٧٥/٦ - ٧٨

(٣) معجم الأدباء ٧١/٦

بيننا في أخلاقه^(١) . ولم يطل عمره ، كما طال عمر الجاحظ ، ولم يُقَيِّضْ لكتبه أن تذيع ، لينسكب على التأليف ويسكثر منه ، كما فعل الجاحظ .

- ٨ -

كان الجاحظ في حياته وفي موته أعظم قدرا ، وأعظم شهرة ، وأبعد أثرا من أبي حيان .

وقد قدّر الجاحظ من يتأثر به ويحاكيه ويقشع له كابن قتيبة (المتوفى ٢٧٦هـ) وأبي الفضل ابن العميد (المتوفى ٣٦٠هـ) والحسن التتوخي (المتوفى سنة ٣٨٤هـ) وأبي حيان التوحيدي (المتوفى سنة ٤١٤هـ)^(٢) .

أما أبو حيان فلم يقدر له شيء من ذلك كله ، ولم يقدر له بعد موته من يتأثره ويرسني مذهبه ، لأن طريقة معاصريه من أنصار الصناعة اللفظية شامت واستقرت هذه قرون .

ثم جاء العصر الحديث فكانت كتب الجاحظ أعظم حظا من كتب أبي حيان ، لأنها معروفة ، وكان اسم الجاحظ رنانا ، فتأثر به كثير من كتاب العصر الحديث . على حين أن أبا حيان كان اسمه خافتا ، وكانت كتبه مجهولة ، وبقيت مخطوطة إلى عهد جد قريب ، فلم يتأثر به أحد .

فليس من المتوقع لكتاب أبي حيان - حورب في حياته ، واتهم بالزندقة ، ونشأه من بعض الناس من كتبه ، وأسطح الخاصة والعامة^(٣) - أن يكون إماما يُستَدَى به في فنه ، لأن النفوس غير مقبلة على قراءته ، ولأن كتبه لم تنسفق كما نفق غيرها من كتب المجد ودين ، وربما كان اسمه بعد موته أقرب إلى التوارى والخفاء من الظهور والرين ، وربما كان فضله أدنى إلى الجحود والجحود من قربته إلى الإقرار والاعتراف والذبيوع .

لهذا لانجد من ورائه تلاميذ يذيعون فضله ، ويلاحون عنه ، ويشيدون على الأساس الذى بناء ، كما فعل هو مع الجاحظ- مثلاً ، وكما فعل مع أستاذه أبى سعيد السيرافى ومسكويه وأبى سليمان المنطقى وغيرهم .
على أن تلاميذه الذين ذكروهم السبكي ليسوا ممن ذاع أمرهم ، واشتهرت أسمائهم .

ذكر السبكي من تلاميذه على بن يوسف ومحمد بن منصور بن حنبل ، وعبد الكريم بن محمد الداودى ، ونصر بن عبد العزيز المصرى الفارسى ، ومحمد بن إبراهيم بن فارس الشيرازى ، وأبى سعد عبد الرحمن بن ممجة الأصبهاني^(١) .
والذى يظهر لنا أن أبى حيان سينال من التقدير والاحتذاء ما يعض الإغفال الطويل . .

الخاتمة

أما بعد

فهذه دراسة لأديب من قادة الفكر في الشرق ، توثبت عليه عوالم الظلم والإغفال دهرا طويلا ، منذ استلَّ قلمه إل عصرنا هذا .
وقد تكشفت هذه الدراسة عن عدة أمور :

— ١ —

كان أبو حيان التوحيدى الثمرة الكبيرة التى أنضجتها علوم عصره وأدبه ، فلم يكن فى القرن الرابع من يدانيه فى مزج العلم بالأدب ، أو فى التسطواف بالقلم الفنى فى رياض المعرفة ، ليقطف من هاهنا ومن هاهنا ، ثم يصنع من قطافه ماتصنع النحلة ، حين تمتص رحيق الزهر ، ثم تخرجه رُضا با شهيا مختلفا ألوانه فيه شفاء للناس .

(١) فهو مُطلعةٌ إلى المعرفة من أفانين شتى ، سواء أكانت متصلة بالإنسان أم بغيره ، وبالمادة أم بما وراءها .

لذلك بحث فى علم الفلك وقيمته ، وفى اجتماع أخلاق متباينة فى الإنسان ، وفى تفاوت الناس فى الفضيلة ، وفى ولوع كل ذى علم بعلمه ودعواه أنه ليس فى الدنيا أشرف من علمه ، وفى أن إنشاء الكلام الجديد أيسر على الأدباء من ترقيع القديم ، وفى أن مبدأ الجوهر الصورة والمادة ، ومبدأ الحكم النقطة والوحدة ، وفى العلاقة بين المنطق والنحو ، وفى الحركة والسكون وأيهما أقدم ؟

وفي السكينة وما يلحق بها من أمور الغيب ، وفي حقيقة الضحك وأسبابه ، وفي
المعاد أهو حق أم تواطؤ من الأقدمين^(١) ... الخ

وبحث في الحسد الذي يمتري الفاضل العاقل من نظيره ، وفي المصادفة
والاتفاق ، وفي الفراسة والمراد بها ؟ وهل هي صحيحة ؟ أو تصح في بعض
الأوقات دون بعض ، ولشخص دون شخص ؟ وفي الجبر والاختيار ، وفي الأمل
والأمية والرجاء ، وهل تشتمل على مصالح العالم ؟

وهل خلق الله العالم لعله أو لغيره ، فإن كان لعله فما هي ؟ وإن كان لغيره
لهة فما هي الهة ؟ وفي ولوع الشعراء بالطيف ، وهل من الجائز أن ترد الشريعة
من قبل الله بما يأباه العقل^(٢) ؟ ... الخ

(ب) وهو كلف بالبحث عن الملل والأسباب ، نَهَمٌ إلى الوقوف على
البواهب الأولى لما يصدر عن الإنسان من أقوال وأعمال .

من ذلك بحثه في سبب تفاوت الناس في الفضيلة ، وفي سبب تفاوت وقع
الألفاظ في السمع ووقع المعاني في النفس ، وفي سبب كتمان السر وعله ظهوره ،
وفي هلة اختلاف الأجوبة في المسائل العلمية^(٣) ... الخ

ولماذا طلبت الدنيا بالعلم ولم يطلب العلم بالدنيا ؟

وما السبب في اشتياق الإنسان إلى ماضى من عمره ؟

ولماذا يقبح الثناء في الوجه ويحسن في الغيب ؟

وما سبب الحياء من القبيح مرة والتبجح به مرة ؟

(٢) الهوامل والشوامل

(١) القابسات

(٣) القابسات .

وما السبب في الخزع من الموت ؟
وما مبدأ العادات المختلفة في الأمن المختلفة ؟
وما الذي حرك الزنديق والدهرى على الخير وإيثار الجحيل ، وهو لا يرجو
ثوابا ، ولا ينتظر مأبا ، ولا يخاف حسابا ؟
وما السبب في محبة الإنسان الرياسة ؟ ومن أين ورث هذا الخلق ؟ وأى شيء
رمزت الطبيعة به ؟
ولم أفرط بمضهم في طنبها ؟
ولم اشتد عشق الإنسان لهذا العالم حتى لصق به وآثره وكسح فيه ، مع ما يرى
من صروفه ونسكباته وزواله بأهله^(١) ؟ ... الخ

— ٢ —

فإننا نحتاجه كله ينطلق بشوقه إلى المعرفة ، وشغفه بها ، وكلفه بالتعمق
والاستقصاء ، ونزوهه إلى معرفة العلل والأسباب .
وهو في هذا كله ذو تعبير أدبي لا يقدر عليه إلا كاتب فنان .
ومن هنا يستحق أن نصفه بالكاتب العالم أو الكاتب المتفلسف .
ولسنا نبعد عن الصواب إذا ما ذهبنا إلى أنه الكاتب العربي الأول الجدير
بهذا الوصف .
وإذا كان الجاحظ قد سبقه فزج أدبه بالعلم ، فإن أبا حيان قد ارتبى على

الجاحظ ، لأن العلوم في عصره كانت أوسع دائرة ، وأبعد آفاقا ، وأقرب إلى النضج والكمال .

— ٣ —

وقد تفرد أبو حيان بخصائص عدة في تفكيكه وطريقة عرضه وتعبيره .
ولو أن عصره قد أنصفه ، أو لو أن المصور اللاحقة وضعت في مكانه التي يستحقها ، لصار زعما عظيما من زعماء الكتابة العربية في عصورها الذهبية .
لكن معاصريه لم ينصفوه ، بل إنهم تعمّدوا أن يمجّدوا فضله ، ويتنقصوا قدره ، وجري في إثرهم مَنْ بعدهم ، قاتسل الإغفال والإهمال والنظر الشّزر .
على حين أن كتاب الخزف والصناعة نالوا من التقدير والتّمجيد أضعاف ما يستحقّون ، وُعِدّوا في تاريخ الأدب من أصحاب المذاهب الكتابية والمدارس الفنية .

ولا شك أن تقديرهم هذا كان صدى لمكانتهم السياسية ، وللدأوى التي بثّها أنصارهم وتلاميذهم ، كما كان مرضا من أمراض الذوق الأدبي الذي استهواه الخزف ، وأرضته ضحولة الفسكّر ، ومهارة التكلف ، فغفل عن روعة التعبير ، وصدق الماطفة ، وعمق التفكيك ، وراء النص .

— ٤ —

وقد تميّز من معاصريه الكتاب بعدة مميزات ، وشابههم في سمات ، تحدّثنا عنها في فصل خاص .

لكن وجوه الامتياز أكثر وأقوى من وجوه الاتفاق ، لأن نواحي المشابهة

— ١٥٨ —

كانت ضرورة من ضرورات العصر والبيئة ، ولم يكن على أبي حيان من بأس
في الإذعان لها ، والجريان في اتجاهها .
أما مناحي المخالفة فإنها استجابة لشخصيته ، وثمرات لمقلبيته ، ودلالة على
تفرد وقدرته .

— ٥ —

وحسبُ أبي حيان في مجال التقدير والموازنة أنه تميز بمدة خصائص ،
أهمها :

١ — الاحتفال بالفكرة ، والجري وراء الحقيقة ، والشوق إلى الوقوف على
السبب والعلة ، مع العناية بالعبارة عن غاية تسموها في أكثر ما كتب إلى الذروة
من الإجابة والامتثال .

٢ — اتخاذ النثر الفني وسيلة للتعبير عن التصوف والدعاء والابتهال ،
والاستغناء بتقطيعه وتقسيمه وموسيقاه والمأطفة التندة التي أزجته ، عن القصائد
والمقطعات .

— ٦ —

وإذا كان أبو حيان قد أعجب بكتب الجاحظ وبطريقته ، فإن دراسة أدبه تكشف
عن تشابه بينهما ، وتكشف عن تخالف لا يقل عن التشابه ، بل إنه يزيد .
وقد تبين أن التخالف يرجع إلى مزاج كل من الرجلين وبيئته .

فالجاحظ فكه مرح ، وأبو حيان جاد صارم . والجاحظ جدل ، وأبو حيان
منطقي . والجاحظ ممزق ، وأبو حيان صوفي . والجاحظ مولع بالاستطراد ،

وأبو حيان لا يستطرد في الموضوع الواحد .

والباحظ قد ير على إثبات القسرة ونقضها ، وتحسين الشيء وتزيينه ، وكثير من أدبه صدق لقله وهواه .

أما أبو حيان فسكاتب ذو عقيدة ، لم يصدر إلا عن عاطفة ، ولهذا لم يتناقض مع نفسه ، ولم ينحرف بقلمه إلى اليمين مرة وإلى اليسار مرة .

وهكذا كان اختلاف التلميذ وأستاذه ، أكثر من اتفاقهما كما بينا في الموازنة بينهما .

— ٧ —

على أن الخصائص التي امتاز بها أبو حيان لم تكن خصائص الجنس الآري ، كما يحملو لبعض الدارسين أن ينسبوه إلى الفرس . فقد انضح في دراسة أصله أنه عربي ، وأنه لم يعرف اللغة الفارسية ، وقد جهر هو بذلك مرات .

وإذا فهم خصائص الشخصية والثقافة والاجتهاد ، لا خصائص الآرية التي يجهلونها أنصارها في أن ينسبوا إليها كل مزية من مزايا التفكير والاستقصاء واستكناه العلل الخفية ، والبحث عن المجهول .

— ٨ —

ولست أشك فيما هدني إليه دراسة أبي حيان من أنه اتهم بالزندقة زوراً ، فقد كان الرجل متديناً سليم العقيدة ، واختتم حياته بالتصوف قولاً وفعلًا ، ودفن في مقابر المتصوفة ، وولى عليه شيخهم .

كما لا أشك في أنه اتهم بالوضع ، للتهوين من قدره والفض من شأنه ، حتى لا يوثق فيما يرويه . ولقد وضحت أن رسالة أبي بكر وعمر إلى عليّ التي رواها أبو حيان ، وزعموا أنها من اختراعه ، ربما كانت مدسوسة عليه وصدّقها ، وربما كان الواضح لها أبو حامد المروزي الذي رواها أبو حيان عنه .

والذي يزّين لنا هذا الدفم أننا لم نجد أرباباً لابي حيان في اختلاق هذه الرسالة ، وأننا عرفناه أميناً دقيقاً في جميع ما سجل من آراء غيره ، سواء أقرأها أم سمعها . لسكننا لاستبعد أن يكون أبو حيان قد أجرى قلمه فيما سمع ، فصارت الرسالة أشبه بأسلوبه ، وصار كالواضح لها .

ويجدر بنا في هذه الخاتمة أن نتوه بأن أبا حيان قد اتصل بوزراء عصره ، وحسبمّ الرأية من ابن عباد وابن العميد ، فهجّاهما في كتاب خاص .
لكنني ذهبت إلى أن ابن العميد المقصود ليس هو أبا الفضل محمد بن الحسين ابن العميد الملقب بالأستاذ والرئيس وذى الرياستين صاحب الطريقة المروفة في الكتابة . وإنما هو أبو الفتح علي بن محمد بن العميد الملقب بذي السكتابتين .
أي أن المقصود هو الابن لا أبوه ، وقد تولى الوزارة بعد أبيه ، فهو الذي اتصل به أبو حيان ، وهو الذي هجّاه .

— ١٦١ —

— ١١ —

وإذا كنا قد أنصفنا أبا حيان فإن هذا الإصاف لا يمنعنا من أن نحمله بعض
التبعة فيما لقي من وزراء عصره ومن معاصريه .
فقد كان في أخلاقه ضعف لو برىء منه لنال من التقدير أضعاف ما نال ،
ولسلم من التحامل عليه ، وتمقبه بالأذى فيما فعل أو قال .

— ١٢ —

وإذا كنت قد أملت بالقرن الرابع في دراستي لأبي حيان ، وطوّفت معه حيناً
طوف ، ودرست أخلاقه فإن هذا — في رأي — عمل لا مندوحة عنه في الإحاطة
بالمؤثرات في أدبه وعلمه .
وإذا كنت قد حللت كتبه كلها ، وعقبت بنماذج من كل كتاب ، فإنما أردت
بهذا أن أزيد القارئ تعريفاً بإنتاجه ، واتصالاً به ، وأن أهدى تمهيداً عملياً موثقاً
به للكشف عن خصائصه .
وأرجو أن أكون على صواب فيما آخذ به نفسي من الاعتماد في الدراسة على
النص أكثر من الأخذ بما قيل عن الأديب من آراء وأحكام .

— ١٣ —

وإني — وقد فرغت من دراسة أبي حيان — لأنتطلع إلى من ينهضون بإخراج
ما بقي من كتبه .

(م ١١ — أبو حيان ج ٢)

وأطلع إلى أن يسلك أبو حيان في صدارة الأدباء الكبار الذين يدرسون .
وأشتاق إلى العناية بأدباء العبارة الرائعة والفكرة العالية أكثر من أدباء البهرج
والزخرف ، فليس الأدب طلاء وبريقاً وبراعة في الخديعة والاحتتيال ، وإنما الأدب
وسيلة للإمتاع ، وغذاء للمشاعر والمواطف والعقول ، وهداية للناس ، وتبصرة
لهم بنواحي الحق والخير والجمال .

المراجع

مرتبة ترتيبا هجائيا

- ١ - أبو حيان التوحيدى : الدكتور عبد الرزاق محي الدين . مكتبة الخانجي ١٩٤٩ .
- ٢ - اتماظ الحنفا بأخبار الخلفاء : المقرئى . مطبعة دار الأيتام العربية بالقدس .
- ٣ - الإشارات الإلهية : أبو حيان التوحيدى . تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى . مطبعة جامعة القاهرة .
- ٤ - الإمتاع والمؤانسة : أبو حيان التوحيدى . تحقيق الأستاذين أحمد أمين وأحمد الزين . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٩ .
- ٥ - أمراء البيان : الأستاذ محمد كرد على . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٥ - ١٩٣٧ .
- ٦ - البخلاء . الجاحظ : تحقيق الأستاذين أحمد العوامرى وعلى الجارم . مطبعة دار الكتب ١٣٥٨ - ١٩٣٩ .
- ٧ - البسائر والذخائر : أبو حيان التوحيدى . تحقيق الأستاذين أحمد أمين والسيد منقر . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٣ - ١٩٥٣ .

- ٨ — تاريخ الحكماء مختصر الزوزنى من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى . ليبسك ١٣٢٠ هـ
- ٩ — تاريخ الفلسفة فى الإسلام: تأليف دى بور . ترجمة الأستاذ محمد أبوريدة . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٧ — ١٩٣٨ .
- ١٠ — تجارب الأمم : ابن مسكويه . مطبعة شركة التمدن بمصر ١٣٣٣ — ١٩١٥ .
- ١١ — تقرىظ الجاحظ : أبو حيان التوحيدي . مقتبسات منه فى معجم الأدباء .
- ١٢ — تهذيب الأخلاق : ابن مسكويه . مطبعة والددة عباس بالقاهرة ١٣٢٣ — ١٩٠٥ .
- ١٣ — ثلاث رسائل للجاحظ : نشرها يوشع فنسكل . المطبعة السافيسية بالقاهرة ١٣٤٤ هـ .
- ١٤ — الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : آدم متر . ترجمة الأستاذ محمد عبد الهادى أبوريدة . مطبعة لجنة التأليف ١٣٥٩ — ١٩٤٠ .
- ١٥ — الحيوان : الجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .
- ١٦ — دائرة المعارف الإسلامية: المجلد الأول . أبو حيان التوحيدي بقلم مرجليوث .
- ١٧ — دراسات فى المصور العباسية المتأخرة : الدكتور عبد العزيز الدورى . بغداد ١٩٤٥ .

- ١٨ — الدولة العباسية : الأستاذ حسن خليفة . المطبعة الحديثة
بمصر ١٩٣١ .
- ١٩ — ذيل "تجارب الأمم" : أبو شجاع محمد بن الحسين . مطبعة شركة
النمدين بالقاهرة ١٣٣٤ — ١٩١٦ .
- ٢٠ — الرسالة : القشيري . مطبعة صبيح ١٩٤٨ .
- ٢١ — الزلف : أبو حيان التوحيدي . مقتبسات منه في ذيل
تجارب الأمم .
- ٢٢ — شرح نهج البلاغة : ابن أبي الحديد . مطبعة دار الكتب
العربية الكبرى ١٣٢٩ .
- ٢٣ — شيراز نامه : أبو العباس أحمد بن أبي الخير زركوب .
طهران ١٣٥٠ .
- ٢٤ — صبح الأعشى : القلقشندي . مطبعة دار الكتب
١٣٤٠ — ١٩٢٢ .
- ٢٥ — الصداقة والصديق : أبو حيان التوحيدي . مطبعة الجوائب
بالقسطنطينية ١٣٠١ .
- ٢٦ — طبقات الشافعية : السبكي .
- ٢٧ — الطواسين : الحلاج . نشره الأستاذ ماسينيون .
باريس ١٩١٣ .
- ٢٨ — العلوم (رسالة ملحقة بالصداقة والصديق) : أبو حيان التوحيدي .
مطبعة الجوائب ١٣٠١ .

- ٢٩ — الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية : محمد بن على
ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى . مطبعة
الموسوعات ١٣١٧ .
- ٣٠ — الفصل فى الملل والأهواء والنحل : ابن حزم .
- ٣١ — فوات الوفيات : ابن شاکر . مطبعة بولاق ١٢٨٣ .
- ٣٢ — اللمع فى التصوف : الطوسى . نشره نیکسون . مطبعة بریل
بلیدن ١٩١٤ .
- ٣٣ — مثالب الوزیرین : أبو حیان التوحیدى . مقتبسات منه فى
معجم الأدباء .
- ٣٤ — مجموع رسائل للجاحظ : نشرها باول کراوس والدکتور محمد طه
الحاجرى . لجنة التألیف ١٩٤٣ .
- ٣٥ — مجموعة رسائل للجاحظ : مطبعة التقدم بمصر ١٣٢٤ .
- ٣٦ — المحامرات والناظرات : أبو حیان التوحیدى . مقتبسات منه
فى معجم الأدباء .
- ٣٧ — محاضرات تاریخ الأمم الإسلامية : الأستاذ محمد الخضرى .
- ٣٨ — مروج الذهب : المسمودى . مطبعة بولاق ١٢٨٣ هـ .
- ٣٩ — معجم الأدباء : یاقوت . طبعة الدکتور فريد رفاعى .
- ٤٠ — المقابسات : أبو حیان التوحیدى . تحقیق الأستاذ حسن
السندوبى . المطبعة الرحمانية بمصر
١٣٤٧ — ١٩٢٩ .

- ٤١ — مقامات بديع الزمان الهمذاني : مطبعة المعاهد بمصر ١٣٤٢ - ١٩٢٣
- ٤٢ — مقدمة الإمتاع والمؤانسة : الأستاذ أحمد أمين .
- ٤٣ — مقدمة البصائر والنظائر : الأستاذ أحمد أمين .
- ٤٤ — مقدمة المقابسات : الأستاذ حسن المسندوبى .
- ٤٥ — مقدمة الهوامل والشوامل : الأستاذ أحمد أمين .
- ٤٦ — الملل والنحل : الشهرستاني . تحقيق الأستاذ محمد فتح الله بدران . مطبعة غيمر ١٣٧٥ - ١٩٥٦ .
- ٤٧ — ميزان الاعتدال في نقد الرجال : الذهبي . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٥
- ٤٨ — النثر الفنى فى القرن الرابع : الدكتور زكى مبارك . مطبعة دار الكتب ١٣٥٢ - ١٩٣٤ .
- ٤٩ — نهاية الأرب : النويرى . مطبعة دار الكتب .
- ٥٠ — الهوامل والشوامل : أبو حيان التوحيدي . تحقيق الأستاذين أحمد أمين والسيد أحمد صقر . مطبعة لجنة التأليف ١٣٧٠ - ١٩٥١ .
- ٥١ — يتيمة الدهر : الثعالبي . مطبعة الصاوى بمصر ١٣٥٤ .

الفهرس

٦ - ١

المقدمة

١٠ - ٧

مؤلفاته

أسمائها . الطبوع منها . المخطوط . المفقود .

تحليل مؤلفاته

١٩ - ١١

المقايسات

موضوعه . طريقته . نماذج منه .

٤٢ - ٢٠

الهوامل والشوامل

معنى الاسم . من الذى سمى الكتاب ؟ طريقه الكتاب .
ملاحظات على الأسئلة . موضوعاته . أسلوب الإجابة .
نماذج منه .

٥٩ - ٤٣

الإمتاع والمؤانسة

لن الله ؟ من ابن سعدان ؟ طريقه الكتاب . موضوعاته .
جهد أبى حيان فيه . نماذج منه .

٦٨ — ٦٠

الصدقة والصديق

لن ألفه ؟ طريقته . قيمته . نماذج منه .

٧٦ — ٦٩

مثالب الوزيرين

موضوعه . حملته على ابن عباد أشد من حملته على
ابن العميد . نماذج منه .

٨٧ — ٧٧

البصائر والنخائر

معنى الاسم . موضوعه . طريقته . نماذج منه .

٩٢ — ٨٨

المحاضرات

لن ألفه ؟ موضوعه . نماذج منه .

٩٧ — ٩٣

تقريظ الجاحظ

إعجاب أبي حيان بالجاحظ . نماذج من الكتاب .

١٠٠ — ٩٨

رسالة العلوم

موضوعها . نماذج منها .

١٠٢ — ١٠١

الزلفه

موضوعه . نموذج منه .

١٠٤ — ١٠٣

الإشارات الإلهية

موضوعه . ربما كان آخر مؤلفاته . طريقته . نموذج منه .

١٢٩ — ١٠٥

خصائصه الفكرية والفنية

كلمة عامة عن كتاب القرن الرابع . لماذا غلبت طريقة الزخرف والصناعة ؟ امتياز أبي حيان عليهم . تقدير بعض الدارسين المحدثين له .

خصائصه :

استمداده من عاطفته . تسجيله ثقافة عصره . امتيازه بالعلم وتزويد الأدب به . براعته في وصف الرجال وتحليل نفسياتهم . قدرته على صياغة الأفكار والترجمة عما بالنفس من مشاعر وآراء . اتخاذه النثر سلاحاً للهجاء . براعته في استعمال الكلمات . بصره بما يتطلب التعبير الفني من دقة وجهد . جنوحه إلى الإطناب . إكثاره من الفصل بالجل المعترضة . إكثاره من الجمل الدعائية . براعته في تنعيم الوقع الموسيق للجمل . فلة سجمه . مزاياء سجمه ، ترسله وازدواجه . ميله إلى التضاد . استشهاده بالشعر والحكم والأمثال .

١٢٩ — ١٢٢

موازنة بينه وبين كتاب عصره

وجوه التشابه .

— ١٧١ —

وجوه التخالف .

موازنة بينه وبين الجاحظ ١٣٠ — ١٥٣

إعجاب أبي حيان به . موازنة عامة بينهما . موازنة تفصيلية .

وجوه التشابه . وجوه التخالف .

الخاتمة ١٥٤ — ١٦٢

المراجع ١٦٣ — ١٦٧

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية

بإشراف الأستاذ عمر الدسوقي

رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

صدر منها : (من سلسلة حياة المجتمعات)

١ - قصة الملكية في العالم : تأليف الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

والدكتور حسن سمعان

٢ - الرومانتيكية : من سلسلة المذاهب الأدبية الكبرى

تأليف الدكتور محمد غنيمي هلال

٣ - زرادشت : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب

تأليف الأستاذ حامد عبد القادر

٤ - كونفوشيوس : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب

تأليف الدكتور حسن سمعان

٥ - الفكاهة في الأدب العربي (جزآن) : من الأدب والنقد

تأليف الدكتور أحمد الحوفي

٦ - قصة الزواج والعزوبة في العالم : من سلسلة حياة المجتمعات

تأليف الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

٧ - تاريخ الفكر الاقتصادي : من سلسلة الاقتصاد السياسي

تأليف الدكتور لبيب شقير

٨ — بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني : من سلسلة الدراسات الإسلامية

تأليف الدكتور صوفي حسين أبو طالب

٩ — ابن خلدون ، منشئ علم الاجتماع : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب

تأليف الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

١٠ — السرقات الأدبية : من سلسلة الأدب والنقد

تأليف الدكتور بدوي طبانة

١١ — الحرية العامة بين المذهب الفردي والمذهب الاشتراكي : من سلسلة

الاقتصاد والسياسة : تأليف الدكتور طعيمة الجرف

١٢ — مونتسكيو : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب

تأليف الدكتور حسن سمعان

١٣ — أبو حيان التوحيدي : (جزآن) . من سلسلة قادة الفكر في الشرق

والغرب تأليف الدكتور أحمد الحوفي

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية بإشراف الأستاذ عمر الدسوقي رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دارالعلوم

الكتاب السابع من هذه السلسلة :

« داروين »

بقلم

الأستاذ الدكتور سيد بدوي

مكتبة النهضة المصرية
مكتبة النهضة المصرية

مطبعة الرشيدية
شارع محمد الخامس ٢٠٠٠

الصفحة ١٥